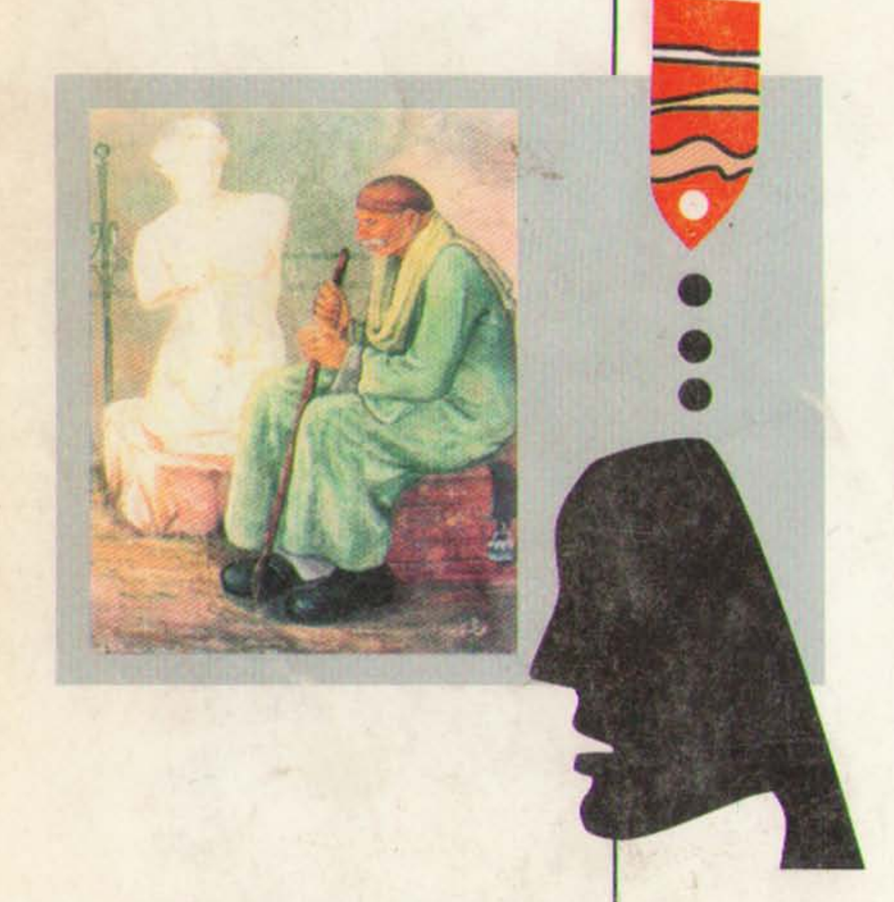
إبداعات عالمية



341

• غرام ميتيا



تأليف: إيفان بونين
ترجمة: شوكت يوسف
مراجعة: د. نديم معلا

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
أبريل 2003



اسم اللوحة : عجوز مع ڤينوس

الفنـان : محمد الدمخي

المـادة : زيت على ورق

القياس : ١٠٠ X ٧٠ سم



• غرام ميتيا

رواية

تأليف: إيفان بونين

ترجمة : شوكت يوسف

مراجعة: د. نديم معلا

العدد 341 أبريل 2003

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

ردمك ٣ - ١٠٠ - ٠ - ٩٩٩٠٦

ISBN 99906 - 0 - 100 - 3

• غرام ميتيا

العنوان الأصلي :

• МИТИНА ЛЮБОВЬ

الطبعة الأولى : (١٩٣٣)

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2003م

إبداعات عالمية - العدد 341

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

اسم اللوحة : مع الريح

الفنــان : أسعد بوناشي

المــادة : زيت

القياس : ٧٠ X ٩٠

مقدمة

إيفان بونين هو آخر عمالقة الأدب الروسي الكلاسيكي وأول كاتب روسي يفوز بجائزة نوبل. ولد إيفان ألكسيفتش بونين عام ١٨٧٠ ونشأ في قرية صغيرة في أواسط روسيا سليلا لأسرة أرستوقراطية نبيلة، أحاق بها الضر والعوز، مع تفكك العلاقات الإقطاعية البطريركية القديمة في الريف الروسي وبدايات نمو العلاقات الرأسمالية. بدأ الكتابة والنشر منذ كان فتى في السادسة عشرة من العمر، وواصل الكتابة بهمة ونشاط حتى وافته المنية في منفاه الاختياري بفرنسا عام ١٩٥٣.

إيفان بونين شاعر الصبابة وعاشق الطبيعة الروسية بامتياز، وصف بأنه «موسوعة الحب، إذ أثارت اهتمامه شتى لحظات وتنوع المشاعر التي تنشأ لدى الرجل والمرأة، وجسّد بفراسة وشفافية وعمق كل تلاوين العلاقة بينهما. وغنى الطبيعة الروسية كما لم يغنها شاعر أو أديب روسي آخر. وبقي مرتبطا أشد الارتباط بالريف وبالفلاح الروسي، وبمعيشة ونمط حياة القرية الروسية، التي كان يفتخر عن حق بمعرفتها أكثر من سواه». وفي عام ١٩٠٩ منحته أكاديمية العلوم الإمبراطورية لقب أكاديمي شرف على إبداعه الأدبي.

كان بونين يرى - ونُقل عنه ذلك مرارا - أنه يجب أن يعيش المرء تسعين عاما، بحيث يقضي ثلثها الأول في الدراسة والتحصيل وبناء الذات في الوطن، وثلثها الثاني في الأسفار والاستطلاع والتعرف على العالم وحياة الشعوب المختلفة، واستكناه أسرار الوجود الإنساني والتأمل في عوامل وأسباب

قيام وانهيار الحضارات والممالك والإمبراطوريات، ويتفرغ في ثلثها الأخير للكتابة والإبداع... وتحقق له أكثر ما تمنى، فزار، قبل أن يهاجر من وطنه في أعقاب الثورة الشيوعية، تركيا، اليونان، مصر، فلسطين، الصحراء العربية، شمال أفريقيا، سيلان، إيطاليا، صقلية، رومانيا وصربيا. ونلمس في أشعاره وقصصه صدى معرفته بواقع وحضارات تلك البلدان.

كان الكاتب يحب الحياة والجمال في الطبيعة وفي الناس، ويحب الخير وفاعليه، ويبغض كل ما ينتهك الانسجام الطبيعي الذي يؤمن به وبضرورته إيمانا راسخا. وفي هذا الضوء يمكن فهم موقفه من الفوضى والعنف والتطرف والقسوة وتحديدا موقفه السلبي، وعلى طول الخط، من ثورتي فبراير وأكتوبر عام ١٩١٧ في بلاده. ففي عام ١٩١٩ ألقى في مدينة أوديسا على البحر الأسود محاضرة معادية للبلشفية، رأى فيها أن روسيا تنتحر، وأن الثورة تقتل الثقافة والانسجام الطبيعي للحياة، ثم غادر إلى فرنسا، حيث أمضى بقية حياته المديدة.

كان بونين شديد الاعتداد بنفسه وقاسيا عليها أحيانا، واضحا وشريفا في آرائه ومعتقداته ومواقفه وعدوا للابتذال، ففي فرنسا لم يغد كاتبا فرنسيا، أو أوروبيا غربيا، إذ على الرغم من إتقانه اللغة الفرنسية منذ طفولته، فإنه لم يكتب بها حرفا واحدا، وكان يرى أن الإنسان لا يمكن أن يعرف، بحق وبشكل واف، سوى لغة واحدة - اللغة الأم - وبقيت روسيا، بماضيها وأوجاع حاضرها، مادة وموضوع أعماله الأدبية

الشعرية والنثرية. وعلى رغم معاناته الفاقة والعوز في فرنسا في فترات مختلفة، ولا سيما خلال سنوات الحرب (*)، بعدما تبخّرت، من جراء الأزمة الاقتصادية والمالية الناشئة، قيمة الرصيد المالي الذي وفرته له جائزة نوبل (الذي حصل عليها عام ١٩٣٣)، لكنه لم يتاجر بمواقفه، فما أكثر الذين حاولوا في الغرب استمالته واستغلال وضعه وموقفه من النظام الشيوعي في بلاده لتحقيق غايات ومآرب سياسية، فحافظ على موقفه الرصين الشريف ولم ينخرط في حملات الدعاية والتشويه ضد الاتحاد السوفييتي. وفي سنوات الحرب شارك بنشاط في المقاومة الفرنسية ضد النازية والفاشية، وفشلت كل محاولات السلطات الألمانية والعميلة لها في إقناع الكاتب بنشر قصصه في الصحافة العميلة.

رُشِّح إيفان بونين لنيل جائزة نوبل للمرة الأولى عام ١٩٢٣، ومن ثم في عام ١٩٢٦ وبعدهما في عام ١٩٣٠، وفاز بها عام ١٩٣٣. عقب صدور روايته «حياة أرسينيف». ومما قيل في حفل تسليم الجائزة ما يلي: «بقرار من الأكاديمية السويدية تُمنح الجائزة لإيفان بونين على الموهبة الفنية الحقة التي تمكن بواسطتها من إعادة خلق الشخصية الروسية بقالب نثري فني».

وعلى الرغم من أن إيفان بونين ظلّ طوال حياته معاديا للأيديولوجيا الشيوعية، إلا أن السلطة السوفييتية لم تستطع

(*) ورد في مذكرات الكاتب عن عام ١٩٤١ ما يلي: «... ما أكثر ما عانيته!... وها هي ذي الشيخوخة، ومرة أخرى الإملاق والوحدة الفظيعة!».

إلا أن تقر بموهبته الخلاقة، وتقدر حبه العارم لروسيا. وفي أيامنا هذه يعد بونين أحد أكثر الكتّاب الروس المحبوبين والجماهيريين.

نقدم فيما يلي إلى القارئ العربي عبر سلسلة «ابداعات عالمية» أربعة من أهم نصوص هذا الأديب الروسي المبدع تمثل محطات مختلفة في سيرته الإبداعية بدءا من مرحلة النضج والشهرة في وطنه، وحتى قبيل وفاته في منفاه الاختياري بفرنسا، وهذه النصوص، وفق الترتيب التالي: «غرام ميتيا»، «ناتالي»، «ضربة شمس»، و«سيد من فرانسيسكو».

المترجم

غرام ميتيا

- ١ -

في موسكو كان التاسع من مارس، بالنسبة لميتيا، آخر أيام سعادته، أو هذا، على الأقل، ما خُيّل إليه، في ذلك اليوم تنزه مع كاتيا في حوالى الساعة الثانية عشرة عبر شارع تفير. كان فصل الشتاء قد انسحب، على حين غرة، أمام الربيع وبدت الشمس حارة بعض الشيء، أو كأن البلابل قد عادت حقا حاملة معها الدفء والفرح. كانت الشوارع وسخة بسبب ذوبان الثلج وتساقط قطرات الماء من علٍ، كما انهمك الخدم وحراس الأبنية في جرف الجليد عن الأرصفة والطرقات، وإلقاء أكوام كتل الثلج اللزقة المتراصة من على أسطحة المنازل... وعلى هذا النحو بدت المدينة آهلة وأكثر حيوية: الغيوم العالية تبددت كدخان أبيض منسجمة مع المظهر العام للون السماء الضارب إلى الزرقة، وتمثال الشاعر بوشكين برز أمامهما عن بعد بجلال مهيب، وتألق كذلك دير ستراسنوي، لكن الأهم والأفضل من كل ذلك أن كاتيا بدت في هذا اليوم حسنة طيبة حميمية، وقد شبكت يدها، بوداعة وبما يشي ببراءة وثقة، بذراع ميتيا، ناظرة، بين الفينة والأخرى، إلى أعلى - إليه - وقد بدا سعيدا مفعم الثقة بالنفس يمشي بخطوات مديدة، كان عليها أن تسرع خطاها كي تلحق به.

وعندما اقتربا من التمثال قالت على نحو مباغت:

- كم تبدو مضحكا وأنت تمط فمك الكبير بصبيانية غير لبقة، لكن محببة عندما تضحك. لا تزعل مني، فأنا أحبك لهذه الابتسامة بالذات. كما لعينيك البيزنطيتين.

حاول ميتيا ألا يبتسم مغالبا بعض الرضى المكتوم والاستياء الخفيف، لكنه أجابها بود باد، ناظرا صوب التمثال الذي بدا الآن شامخا أمامهما:

- بخصوص الصبيانية لا فرق كبيرا بيننا على ما أعتقد... ومن جهة أخرى أنا أشبه البيزنطي كما تشبهين أنت إمبراطورة الصين. أنت، بكل بساطة، تغرقين في هذه الحفلات والأعياد... لا أستطيع أن أفهم أمك!

هنا سألته كاتيا مباشرة:

- هل يعني ذلك أنك لو كنت مكانها لحبستني في العلية؟

- لما حبستك في العلية، لكن لما سمحت لكل «فرسان» هذه الاستوديوهات الفنية والمعاهد الموسيقية والمدارس المسرحية بالخروج من أجل هذه البوهيمية(*) الاستعراضية - أجابها ميتيا مستمرا في تصنع الهدوء والود مع قلة الاكتراث ثم أضاف:

- أنت نفسك قلت لي أن بوكوفسكي دعاك إلى العشاء في مطعم ستريلنا، وأن يجوروف اقترح عليك نحت تمثال عار يجسد موجة بحرية متلاشية، وكنت، طبعا، تحسين بأن هذا يشرفك، وكنت وفي غاية السرور بهذا العرض.

- أنا، مع ذلك، وحتى من أجلك، لن أترك الفن. قد أكون لئيمة كما سبق أن قلت لي مرارا، قد أكون رخيصة، لكن اقبلني هكذا كما أنا عليه. لا داعي للخصام، أقلع عن الغيرة على الأقل الآن في هذا النهار الجميل! لماذا لا تفهم أنك عندي، مع ذلك، المفضل والوحيد؟ سألته بصوت خفيض وبإلحاح، ثم تصنعت الغواية

(*) البوهيمية: اسم يطلق على أفكار وتصرفات فئة من الكتاب والفنانين أو حتى أشخاص عاديين يعيشون حياة لاتقم وزنا للأعراف والتقاليد.

محدقة في عينيه مرددة ببطء وفي صورة تأملية بيت الشعر التالي: «بيننا سر هاجع، وبين قلبينا انعقد رباط مقدس...».

هذا القول الشعري الأخير جرح إحساس ميتيا. وبوجه عام ثمة أشياء كثيرة أثارته وآلمته في هذا النهار، أزعجته المزحة حول عدم لباقته الصبيانية، فقد سمع مثل هذه المزحات من كاتيا غير مرة، وليست، على كل حال، عرضية، وحاولت في ذلك، أن تبدو، على هذا النحو أو ذاك، أكبر وأنضج منه. كما أشارت مرات أخرى (دونما قصد، أي بشكل طبيعي عفوي) إلى تفوقها عليه، وقد فهم ذلك كعلامة على خبرتها المشبوهة غير المشرّفة. أزعجته أيضا عبارة: «مع ذلك»: (أنت عندي، مع ذلك، المفضل والوحيد) وأن ذلك قد قيل - لسبب ما - بصوت خفيض. كما أزعجه، على نحو خاص، بيت الشعر وطريقة إلقائه. لكن حتى هذا الشعر وإلقاؤه، الذي ذكر ميتيا أكثر ما ذكر، بذلك الوسط الذي انتزع منه كاتيا، فأثارحنقه وغيرته - حتى هذا كله قد تحمله بسهولة نسبيا في نهار يوم التاسع من مارس السعيد في موسكو، كما بدا له مرارا فيما بعد.

في ذلك اليوم ابتاعت كاتيا، في طريق العودة من مخزن تيسمركان، بعضا من أعمال سكريابين، وقالت - عرضا - مشيرة إلى أمه ضاحكة:

- أنت لا تستطيع أن تتصور كيف أخشاها سلفا!

لسبب ما لم يتطرقا، مرة خلال علاقة حبهما، إلى مسألة المستقبل، إلى ما يمكن أن يفضي إليه حبهما. لكن ها هي كاتيا تقول بخصوص أمه تماما ما معناه إنها حماتها المستقبلية.

بعدئذ سار كل شيء كسابق عهده على ما يبدو. ظل ميتيا يصحب كاتيا يرافقها إلى استوديو مسرح الفنون، إلى الحفلات الموسيقية وإلى الأمسيات الأدبية، أو يزورها ويسهر عندها في كيسلوفكا حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، مستغلا جو الحرية غير المألوفة تماما التي منحتها لابنتها أم لطيفة طيبة غارقة على الدوام في تدخينها وفي المحافظة على تورد وجهها والاعتناء بشعرها القرمزي اللون، بعد ان انفصلت عن زوجها الذي كانت له أسرة ثانية. استمرت كاتيا كذلك في زيارة ميتيا في مسكن الطلاب في ملتشانوفكا، وتواصلت مواعيدهما الغرامية كالسابق والتي قضيا جلها في جحيم من القبل. مع ذلك ظلت تلح على ميتيا فكرة أن أمرا ما مريبا قد بدأ فجأة، وأن شيئا ما قد تغيّر فتغيرت معه كاتيا.

طار سريعا ذلك الزمن الرخي الذي عاش ميتيا في نعمائه حينا، غب بداية لقائهما وتعارفهما، إذ شعرا آنئذ أن أمتع اللحظات هي عندما يتحدثان معا (وإن استمر ذلك من الصباح حتى المساء)، وحين غرق ميتيا بغتة في عالم الحب المسحور الذي طالما انتظره وتمناه سرا منذ طفولته ومراهقته. ذلك الزمن كان شهر ديسمبر بصقيعه وصحوه، الذي زيَّن موسكو بلآلئ ثلجه في ظل قرص شمسه الواطئ البادي بلون أحمر عكر. وجاء شهرا يناير وفبراير ليدخلا حب ميتيا في عاصفة من السعادة المتواصلة التي بدت متحققة أو قيد التحقق. لكن حتى في ذلك الحين (وأكثر فأكثر مع مرور الزمن) نما شيء ما

راح يحد من امتداد هذه السعادة ويسممها، حتى خيّل إليه أحيانا أن ثمة أكثر من كاتيا واحدة، بل اثنتان، الأولى: كاتيا التي صار منذ الدقيقة الأولى للقاء يتمناها ويطلبها، والأخرى: كاتيا الحقيقية العادية غير الشبيهة بالأولى حتى درجة الألم. مع ذلك يكابد ميتيا الآن معاناة لم يكابد مثلها قبلا.

يمكن أن نجد لكل أمر تفسيرا وسببا. فها قد بدأت مع قدوم الربيع مشاغل النساء: مشتريات، طلبات، تغيير وتعديل في الهندام. وفي الواقع اضطرت كاتيا إلى الذهاب مرارا بصحبة أمها إلي الخياطين، إضافة إلى ذلك أمامها امتحان في تلك المدرسة الخاصة التي تواظب على الدوام فيها. كل ذلك يعد من الطبيعي، والمفهوم حقا، أي انشغالها وشرودها. على هذا النحو راح ميتيا يواسي ويعزي نفسه، لكن هذا العزاء لم ينفع، فما هجس به قلبه رغما عنه كان أقوى وصار أجلى وأوضح: عدم اهتمام كاتيا الداخلي به تنامى، وتنامت إثره وبسببه شكوك وغيرة ميتيا. مدير مدرسة المسرح أدار رأسها بمديحه وإطراءاته التي لم تستطع إخفاءها، بل تباهت بها أمام ميتيا. قال لها المدير «أنت فخر مدرستي» - خاطب جميع تلميذاته بصيغة المفرد - وإضافة للدروس العامة راح يعطيها دروسا إضافية خاصة كي تتألق في الامتحان. ومعروف عن هذا المدير أنه أفسد التلميذات، إذ كان يصطحب في كل صيف إحداهن إلى القوقاز، إلي فنلندا وإلى الخارج. وهكذا دخل في روع ميتيا أن اختيار المدير قد وقع الآن على كاتيا، التي - علما أنها غير مذنبة - يمكن أن تكون قد دخلت معه في علاقات وضيعة ومشينة. وهذه الفكرة عذبته، لا سيما أن قلة اهتمامها به قد غدت واضحة جدا.

تصوّر ميتيا أن أمرا ما أصبح يشغل كاتيا ويبعدها عنه. صار يضايقه مجرد ورود اسم المدير في خاطره. تصور، عموما، أن اهتمامات ما أخرى بدأت تتملك كيان كاتيا على حساب حبها له. لكن ما كنه وما حقيقة هذه الاهتمامات؟ ذلك ما لم يتحقق منه ميتيا، وإن كان قد صار يغار عليها من كل شيء ومن جميع الناس، وبوجه خاص (وهذا هوالأهم) من تلك الخيالات التي تراوده حول العلاقة الجديدة التي، من المحتمل، أن تكون كاتيا قد بدأت تعيشها فعلا. تصورأن قوة ما جارفة تبعدها عنه إلى جهة ما، وربما إلى حيث يرعبه حتى مجرد التفكير فيها.

ذات مرة قالت له نصف مازحة، بحضور أمها:

- أنت، يا ميتيا، تفهم النساء بمنطق نظام الأسرة العتيق، وفي ذلك تشبه عطيل تماما، وعلى هذا النحو لا يمكن أبدا أن أغرم بك، أو أن أقبل الزواج بك!

قاطعتها أمها:

- لا أتصور حبا من دون غيرة، فمن لا يغار لا يحب في رأيي.

- لا يا ماما، قالت كاتيا وقد برز هنا ولعها بترديد كلمات غيرها، الغيرة هي عدم احترام من تحب، فمن لا يثق بي لا يحبني، قالت ذلك عامدة موجهة نظرها صوب ميتيا.

قاطعتها أمها ثانية:

- أنا أرى أن الغيرة هي الحب... حتى أني قرأت في مكان ما شيئا من هذا القبيل، مشفوعا بشواهد من الكتاب المقدس تقول، إن الله ذاته غيور منتقم.

أما حب ميتيا فقد عبّر عن نفسه الآن، وبشكل كلي تقريبا، من خلال الغيرة. ولم تكن تلك غيرة عادية، بل من نوع خاص كما خيّل

إليه. فلم يكن قد بلغ، أو اجتاز في علاقته الجنسية بكاتيا، الخط الأخير، على رغم أنهما سمحا لأنفسهما في ساعات خلواتهما الطويلة بالكثير. وها هي الآن تبدو في هذه الساعات أكثر شهوانية من السابق. وهذا الأمر أضاف إلى شكوكه شكوكا وأيقظ في أعماقه إحساسا جهنميا. وفي الواقع كانت كل أحاسيسه، التي تكونت منها غيرته، جهنمية، لكن إحساسا واحدا منها كان أكثر جهنمية، ولم يكن ميتيا قادرا على تحديده أو حتى فهمه - تعلق ذلك تحديدا في علامات الشهوانية البادية، التي كانت إلى حين أحلى وأروع ما في هذا العالم بالنسبة إليهما، لكن التي غدت الآن حقارة ما بعدها حقارة عندما يتصور كاتيا مع رجل آخر، عند هذا الحد تستيقظ في داخله غيرة حادة. كان كل ما جرى بينهما في خلواتهما من نعيم الجنة وعطاءات الحكمة، لكن عندما يتصور رجلا آخر مكانه في هذه العلاقة ينقلب كل شيء في لحظة واحدة، ويتحول إلى فعل مشين يستثير رغبة جامحة لخنق كاتيا - لخنقها هي نفسها تحديدا، وليس غريمه المتخيل.

في يوم امتحان كاتيا الذي جرى، أخيرا، في الأسبوع السادس من الصوم تجلت، بوجه خاص، كل مشروعية عذابات ميتيا. في ذلك الحين بدت كأنها لم تره ولم تعرفه، بدت غريبة عنه وملك آخرين.

في الامتحان حققت نجاحا كبيرا. لبست الأبيض وكانت كعروس زادها الاضطراب روعة وجمالا. صفقوا لها بمودة وحرارة، أما المدير - الذي جلس في الصف الأول، وقد بدا ممثلا منقوشا بعينين كابيتين حزينتين - فراح، قاصدا المباهاة والاستعراض، يقدم لها ملاحظات بصوت منخفض، لكنه مسموع في كل أنحاء الصالة وعلى نحو لا يطاق، قال لها بنبرة متعالية هادئة وخطيرة بدا من خلالها كأن كاتيا إحدى محظياته:

- خفضي من جهارة صوتك. لا تؤدي فقط، بل ذوبي مع الأداء...

كان كل ذلك مما لا يطاق... جاءت نبرة صوتها كمن يتوسل التصفيق. تضرّج وجهها بالحمرة لشدة ارتباكها، تهدّج صوتها وتلاحق تنهدها. لكن كان ذلك، من جانب آخر، مثيرا وفاتنا. بوجه عام كان أداؤها أخرق فجّا مع غباء، لكنه اعتبر قمة فنية من قبل ذلك الوسط الكريه (بالنسبة إلى ميتيا) الذي انخرطت فيه كاتيا بكل كيانها: جاء كلامها أشبه ما يكون بالصياح والاستغاثة مع حماسة ساجية، ومع ضراعة زائفة غير مسوغة إلى درجة أن ميتيا لم يعرف كيف يحجب عينيه من شدة خجله من أجلها. أسوأ شيء كان ذلك الخلط بين الطهر الملائكي والعهر الصريح المتمثل فيها، في وجهها المتضرج، في ثوبها الأبيض الذي بدا، وهي على

المسرح، أقصر، إلى درجة أن الجالسين في الصالة راحوا ينظرون إليها من الأسفل. على هذا النحو كانت كاتيا وهي تؤدي بسذاجة متكلفة مبالغ فيها «فتاة غنت في كورس كنسي» عن فتاة ما تتسم بعفة وطهر ملائكي. انتاب ميتيا إثر ذلك مزيج من الأحاسيس المركبة المتناقضة:أحس بحميمية إزاء كاتيا (ذلك ما يحسبه الإنسان دوما إزاء من يحب عندما يلقاه وسط جمع من الناس)، وبعداوة بغيضة افتخر بها إذ اعتبرها، بشكل ما له، وتألم من أعماق قلبه، من جانب آخر، لأنها، على ما يبدو، لم تعد له.

بعد الامتحان كان ثمةأيام سعيدة أيضا... لكن صار صعبا على ميتيا أن يثق مطمئن البال كما في الماضي. قالت له كاتيا متذكرة الامتحان:

- يا لك من غبي! ألم تحس أن أدائي كان على هذه الدرجة من الجودة من أجلك أنت وحدك!

لكنه لم يستطع نسيان ما أحسَّ به أثناء الامتحان، ولم يقو على الاعتراف بأن تلك الأحاسيس قد حفرت أثرا باقيا في نفسه حتى الآن. بدورها كاتيا أدركت أحاسيسه المكتومة. فذابت مرة ارتفع صوتها أثناء خصام بينهما قائلة:

- لا أفهم من أجل أي شيء تحبني إذا كنت لا ترى فيّ سوى الحماقة! وماذا تبغي مني في نهاية الأمر؟!

لكنه نفسه لا يفهم لماذا يحبها. علما بأن إحساسه بحبها لم يخف، بل تنامى واحتدم مع صراع الغيرة الذي دار بينه وبين العالم بسبب هذا الحب وشدته وما يثيره في نفسه من متطلبات متجددة.

ذات مرة قالت له بمرارة:

- أنت تحب جسدي فقط لا روحي!

كانت تلك أيضا كلمات مسرحية محفوظة... لكن مع كل تفاهتها وابتذالها فقد لامست أمرا ما يؤرقه. فهو لا يعرف لماذا يحب، ولم يستطع معرفة ما يريده تحديدا وبدقة... ماذا تعني، عموما، كلمة «حب»؟ الإجابة صعبة، لا بل غير ممكنة. فلم يسمع ميتيا من أحد، ولم يقرأ في أي كتاب تعريفا محددا لهذه الكلمة. في الكتب، كما في الحياة، اتفق جميع الناس، مرة وإلى الأبد، على التحدث عن نوعين من الحب: عذري وحسي شهوي. أما حبه فليس شبيها بهذا أو بذاك. ما الذي يكابده إزاء كاتيا؟ هل يسمى حبا أم اشتهاء؟ هل روح كاتيا أم جسدها ما أوصله إلى حد فقدان الوعي تقريبا، وإلى آخر تخوم اللذة والنعيم عندما كان يحل أزرار ردائها ويقبلها في صدرها الأنثوي الناهد فائق الروعة المنفتح أمامه بطريقة تهز الأعماق وبجرأة عذرية خالصة؟

ازدادت كاتيا ابتعادا عن ميتيا. كان لنجاحها في الامتحان دور مهم في هذا المجال، إضافة إلى أسباب أخرى معينة. تحولت فجأة، بشكل ما، ومع حلول الربيع إلى أشبه ما تكون بسيّدة شابة من الوسط الراقي، أنيقة، وعلى عجلة من أمرها دوما بسبب ضيق الوقت. صار ميتيا يحس بالخجل الآن عندما تعرّج عليه - رافلة بالحرير مسدلة نقابا شفافا على وجهها - بسبب الإنارة الشحيحة في دهليز السكن الطلابي. بدت لطيفة، شكليا، معه، لكنها صارت تتأخر عن الموعد وتختصر وقت الزيارة بحجة أن عليها أن ترافق أمها إلى الخياطة:

- أحب أن أكون أنيقة، قالت بمرح مرفرفة عينيها مدركة تماما أن ميتيا لا يصدقها، لكنها تواصل الثرثرة، إذ لم يعد الآن من موضوع للحديث بينهما.

صارت تزوره خطفا: تجلس على سريره خالبة لبه بساقيها الملفوفتين بجوربين حريريين من دون أن تخلع قبعتها عن رأسها، أو ترخي المظلة من يدها. وبعد أن تتعلل بأنها مشغولة جدا هذا المساء (إذ عليها أن تعرج لزيارة أحد ما مع أمها كالعادة) وبقصد استغبائه أحيانا كانت تقوم بحركات غدت مألوفة، فتسترق النظر إلى الباب، تنهض عن السرير، تهز وركيها وتقول له هامسة على عجل قبل أن تغادر:

- هات بوسة!

في أواخر شهر نيسان قرر ميتيا أن يمنح نفسه فترة راحة ويغادر موسكو إلى القرية.

لقد أهلك نفسه وأهلك كاتيا معه وأضناها عذابا، وكان عذابا لا يُطاق بحق، لا سيما عندما يُطرح تساؤل حول أسباب ومشروعية شكوكه واتهاماته. وذات مرة قالت له وكأن اليأس قد دفعها إلى ذلك:

- نعم، سافر! سافر!، ما عدتُ أحتمل! يجب أن يبتعد أحدنا عن الآخر مؤقتا لاستجلاء كنه علاقتنا. صرت نحيفا إلى درجة أن ماما مقتنعة بأنك مصاب بالسل. ما عادت لديّ طاقة!

وتقرر سفرُ ميتيا. لكنه - ويا لعظيم دهشته - سافر بينما كان غارقا في محنته، وعلى قدر من السعادة في آن معا. فما أن تقرر موعد السفر حتى تعود المياه إلى مجاريها القديمة. فهو لم يشأ أبدا - على رغم كل ما حصل - أن يصدق الأمر الذي أقض مضجعه آناء الليل وأطراف النهار. وكان يكفي أقل تغيير في سلوك كاتيا حتى يغفر لها ويتغير كل شيء بالنسبة إليه. الآن عادت لطيفة محبة غير معاندة. لمس ذلك بحدس الطبيعة الغيورة التي لا تخطئ. ومن جديد عاد يسهر عندها حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكرّت الأحاديث تترى... وكلما اقترب موعد السفر غدا داعي الفراق و«ضرورة استجلاء كنه علاقتنا» غير ذي شأن. وفي إحدى المرات بكت كاتيا (ولم يرها باكية من قبل) وجعلتها الدموع فجأة قريبة جدا إلى قلبه وأفعمته بحس الأسى والإشفاق الحاد كما لو كان مذنبا في حقها.

في مطلع حزيران سافرت أم كاتيا إلى شبه جزيرة القرم لقضاء الصيف كله هناك وأخذت ابنتها معها. اتفق ميتيا وكاتيا على اللقاء في ميسخور.

وهكذا شرع ميتيا يستعد للسفر. راح يجوب شوارع موسكو بما يشبه حالة العليل الذي ما زالت تحمله ساقاه على رغم أنه يعاني مرضا ثقيلا. كان تعبا فعلا، تعسا من جهة، وسعيدا منفعلا بعودة كاتيا إليه واهتمامها به، (ذهبت معه لشراء أربطة لحزم الأمتعة وكانت في ذلك أشبه بعروسه أو زوجته) وعموما بعودة كل ما ذكره في الفترة الأولى لعلاقة حبهما. وبهذه الروح تماما نظر إلى كل ما حوله: إلى البيوت والشوارع، إلى المارة، إلى الطقس الربيعي الغائم، إلى رائحة الغبار والمطر، إلى رائحة أشجار السرو المتساقطة أوراقها خلف الأسيجة في الأزقة. بكلمة أخرى تجلت في كل شيء لوعة الفراق وحلاوة الأمل بصيف مقبل ولقاء في القرم، حيث لا منغصات بعد، وكل شيء سيتحقق (وإن كان لا يدري ما هذا الـ «كل شيء» تحديدا).

في يوم السفر عرّج عليه صديقه بروتاسوف مودعا. بين تلاميذ الصفوف العليا من المدارس الثانوية، أو بين طلاب الجامعة لا يندر أن نصادف شبابا يتخذون وضعية الصديق الطيب النصوح، الذي يقدم نفسه زميلا أوأخا أكبر أكثر خبرة من غيره. بهذا الشكل كان بروتاسوف أحد أقرب زملاء ميتيا، الصديق الحقيقي الوحيد الذي عرف كل أسرار حبه على الرغم من طبيعته المتسمة بالكتمان والصمت. نظر هذا الصديق إلى ميتيا وهو يحزم حقيبة سفره، ورأى كيف ترتجف يداه، فقال مبتسما وبنبرة ساخرة حزينة وإرشادية:

- فليسامحكم الرب أيها الأطفال الأبرياء! بعد كل ما جرى آن الأوان، يا صديقي الكريم فترتر(*) من تامبوف(**)، أن تدرك أن كاتيا كائن أنثوي تماما في المقام الأول، وأن قائد الشرطة بذاته لا يستطيع فعل شيء بهذا الخصوص. وأنت رجل، ذكر تلح عليها طالبا منها ما تمليه غريزة استمرار النسل. وكل ذلك، بالطبع، مما هو قانوني مشروع، لا بل مقدس بمعنى من المعاني. الجسد هو الحقيقة العليا كما أكد السيد نيتشه. لكن ليس نافلا أن تقضي نحبك على هذا الطريق المقدس. وفي عالم الحيوانات ثمة مخلوقات تدفع حياتها ثمنا لأول وآخر فعل جنسي،وهذا أمر مقر ومعروف. لكن، وبما أن هذا الأمر لا يسري على عالم البشر كشرط أكيد، عليك أن تفتح عينيك وتحمي نفسك. وعموما لا تستعجل. «يا يونكر شميت صدقا سيعود الصيف!» كاتيا ليست الوحيدة في هذا العالم. أرى من خلال حزمك للحقيبة بشدة، أنك غير موافق على كلامي، وأنك سادر في غيّك. لكن سامحني على نصيحة أسديتها من دون طلب وليحمك الحبيب نيكولا!

بعد أن شد بروتاسوف على يد صديقه مودعا استأنف ميتيا عمله - حزم الوسادة والبطانية، بينما تناهى إلى سمعه عبر نافذته المفتوحة على فناء الدار صوت طالب يسكن مقابله يتعلم الغناء، ويتدرب على ذلك من الصباح حتى المساء. كان يردد كلمات أغنية معروفة «أزرا». عند هذا الحد أسرع ميتيا، أكمل حزم الأمتعة كيفما اتفق، تناول قبعته وذهب إلى كيسلوفكا لوداع والدة كاتيا. بقي لحن وكلمات أغنية الطالب يطنان في أذنه لدرجة أنه

(*) إشارة إلى رواية «آلام فرتر» الشهيرة وبطلها العاشق الشاب فرتر (المترجم).

(**) مقاطعة في روسيا.

سار هائما على وجهه لا يكاد يرى الشوارع والمارة، كان أسوأ حالا مما كان عليه في الأيام الأخيرة. فعلا بدا كأن الله لم يخلق سوى كاتيا، وأن يونكر شميت يريد أن يطلق رصاص مسدسه على نفسه. عادت تطن في أذنه الأغنية وفكر كيف التقت ابنة السلطان، بينما هي تتنزه في الحديقة «متألقة الجمال»، العبد الأسود واقف عند النافورة «أشحب من الموت»، وكيف سألته، ذات مرة، من يكون ومن أين، وكيف أجابها باستسلام، لكن بغضب وعبوس:

- اسمي أنا، إبراهيم ...

وأكمل صائحا بمرارة مأساوية:

«أنا من نسل أزار

إن أحببنا نموت حبا!»

ارتدت كاتيا ملابسها من أجل الذهاب إلى المحطة لوداعه. صاحت مخاطبة إياه بلطف من غرفتها - تلك الغرفة التي طالما قضى فيها معها أحلى الساعات - مكررة أنها ستكون في المحطة عندما يدق الجرس الأول. كانت أمها المرأة الحبوبة الطيبة جالسة تدخن وتنظر إليه بحزن. يبدو أنها قد حذرت وأدركت الأمر كله منذ زمن... جاءها متورد الوجه مضطرب الجنان، قبّل يدها الرقيقة المتغضنة محنيا رأسه كما الابن أمام أمه، وقبلته، هي بدورها، بلطف الأم بضع مرات في فوده راسمة إشارة الصليب مرددة كلام غريبايدوف(*) بابتسامة فاترة:

- عش ضاحكا يا حبيبي! سافر، وليكلأك المسيح بعنايته...

(*) شاعر ودبلوماسي روسي ثوري عاش في أوائل القرن التاسع عشر - المترجم.

بعد أن أتم كل الاستعدادات المتعلقة بالسفر رتب أمتعته في عربة، بمساعدة المشرف في مسكن الطلبة، وجلس بجانبها، ثم تحركت العربة. انتابه ذلك الإحساس الخاص الذي يسيطر على المسافر المدرك أن مرحلة معينة من حياته قد انتهت (وإلى الأبد) مع راحة طارئة وأمل بحلول شيء ما جديد. تطامنت نفسه قليلا، أحس بنشاط أكثر وراح ينظر ويلتفت حوله بعيون جديدة. أخيرا وداعا يا موسكو ولكل ما جرى فيها! كانت الشوارع خاوية متجهمة، وحجارة الشارع المرصوف سوداء ملتمعة كالحديد، وبدت البيوت كئيبة ووسخة.

سارت العربة ببطء ثقيل جعل ميتيا يتلفت إلى جانبي الطريق... اجتاز منطقة الكرملن وبعده بوكروفكا، ودخلت العربة من جديد في الأزقة الفرعية التي تناهى إلى سمعه من جنيناتها أصوات الرخم في المساء غب المطر على رغم أن رائحة هواء الربيع تفعم الجو. وصلت العربة إلى المحطة، فاندفع ميتيا خلف الحمال عبر المحطة إلى الرصيف الثالث حيث وقف قطار كورسكي طويلا وثقيلا. وبين هذا الخليط الضخم من الحشود المحاصرة للقطار وخلف جمهور الحمالين، بزعيقهم التحذيري، وهم يدفعون العربات المحملة بالأمتعة أمامهم، لمح ميتيا وميّز تلك «المتألقة الجمال» تقف وحيدة ككيان متميز تماما، ليس وسط هذا الحشد البشري فحسب، بل وسط هذا العالم كله. كان قد قرع الجرس الأول، وفي هذه المرة كان هو الذي تأخر عن الموعد وليس كاتيا، كانت قد وصلت قبله، وما إن رأته حتى اندفعت نحوه بهمة الزوجة أو الخطيبة قائلة:

- حبيبي، احجز مقعدك فورا! الآن سيقرع الجرس الثاني.

لبثت واقفة على الرصيف بجاذبية آسرة، بعد الجرس الثاني، رافعة نظرها إليه وهو واقف في مدخل عربة الدرجة الثالثة المحشوة بالمسافرين وروائحهم المختلطة. كان كل ما فيها جميلا: وجهها الجميل المليح، قامتها الرشيقة، غضاضتها، فتنتها، أنوثتها الممزوجة بطفولة واضحة، عيناها المتألقتان، قبعتها الزرقاء بثنياتها الأنيقة، وحتى بزتها الرمادية الداكنة التي تحسس ميتيا بوله نسيجها وبطانتها الحريرية. وقف بقامته النحيلة المرتبكة، وقد لبس، على سفر، جزمة طويلة خشنة وسترة عتيقة تهرأ قماش أزرارها فبرز معدنها الأحمر. مع ذلك لبثت كاتيا تنظر إليه بعين محبة حزينة. قرع الجرس الثالث فجأة وبحدة وجفت معه القلوب وجعلت ميتيا يندفع من باب العربة كالمجنون نحو كاتيا التي خفت نحوه. هوى يلثم قفازها، ثم أسرع في اتجاه العربة، لوّح لها بقبعته والدموع تنهمر من عينيه، أما هي فقد انحنت رافعة طرف تنورتها متراجعة إلى الوراء من دون أن تحوّل نظرها عنه. غاصت رويدا رويدا وسط الحشد البشري، تطاير أكثر فأكثر شعر ميتيا المطل من نافذة العربة. أما القطار فانطلق في طريقه يهدر أقوى فأقوى بصريره الذي لا يرحم إلى أن انسحب تماما من الرصيف وغاب.

حل منذ حين الغبش الربيعي الكالح بسبب السحب المحملة بالمطر، هدرت العربة الثقيلة في الحقل الأجرد البارد (ما زالت علامات الربيع في الحقول غير بادية بعد) وشرع مراقبو التذاكر يضعون الشموع في الفوانيس اليدوية المتنقلة ويقومون بعملهم، أما ميتيا فما زال واقفا خلف النافذة المهتزة تفعم أنفه آثار رائحة قفازات كاتيا المتبقية على شفتيه، وما زالت كذلك نار لحظة الفراق الأخيرة متأججة في داخله. مثُل في خاطره، على نحو ما جديد، كل الشتاء الموسكوفي الطويل المنصرم، شتاء السعادة والعذاب الذي قلب حياته بأكملها، وبرزت الآن أمامه، على نحو ما جديد أيضا، كاتيا... حقا، حقا من هي ومن تكون؟ والحب والعاطفة والروح والجسد - ما كنه كل ذلك؟ ثمة شيء ما آخر، آخر فعلا... وهل رائحة القفاز هذه غير كاتيا، غير الحب، غير الروح وغير الجسد؟ وعمال العربة، وهذه المرأة التي تقود ابنها الشقي إلى المرحاض والشموع الشحيحة النور في الفوانيس المتقلقلة، والغبش في الحقول الربيعية الخاوية - كل ذلك حب، روح، عذاب وفرح غامر.

مع حلول الصباح وصل القطار في مدينة أريول، وشرع المسافرون ينتقلون إلى قطار يعمل على خط فرعي واقف أمام رصيف جانبي.

مع تحرك القطار في الاتجاه الجديد انتاب ميتيا إحساس آخر: يا له من عالم بسيط هادئ وقريب حميم بالمقارنة مع عالم موسكو المبتعد، والذي كانت في المركز منه كاتيا التي تبدو له الآن

وحيدة، حزينة، وديعة وحبيبة! حتى السماء التي تتناثر فيها السحب الممطرة الداكنة على زرقة، وحتى الهواء كذلك، كله أبسط وأهدأ... سار القطار من أريول الهوينا الهوينا، تناول ميتيا على مهل واحدا من أقراص تولا(*) الحلوة المقمرة بينما كان جالسا في عربة شبه خالية. أخيرا سار القطار بسرعته المعهودة، غذ في طريقه... ونام ميتيا.

أفاق في فرخوفا. توقف القطارهنا، وبدت، ثمة جلبة وحركة نشطة للناس، لكن مع إحساس جلي بأن البقعة نائية. فاحت الرائحة المحلية الزكية لمطعم المحطة. احتسى ميتيا بشهية صحن شوربة خضار وشرب زجاجة جعة، ثم غفا من جديد. عندما صحا كان القطار يغذ السير عبر غابة في في تولا معروفة بالنسبة إليه، قبيل المحطة الأخيرة. ومن جديد حلت ظلمة المساء وغبشه الربيعي. انبعثت من النافذة المفتوحة رائحة المطر وما يشبه رائحة الفطر. ما زالت الغابة عارية تماما، لكن تردد صدى هدير القطار هنا بشكل أوضح مما هو عليه في الحقول، والتمعت في الأفق إلى الأمام أضواء المحطة كابية حزينة. وها هو الضوء الأخضر الصادر عن نار السماور (يا له من ضوء جميل في مثل هذا الغبش الربيعي في فضاء الغابة العارية) بينما شرع القطار، بصرير معتاد، يتحول إلى سكة أخرى... يا إلهي ما أتعس وما أطيب هذا العامل الذي ينتظر سيده الصغير على رصيف المحطة!

تكاثفت الغيوم والغبش خلال سير القطار من المحطة وعبر الغابة الوسخة في مثل هذا الوقت من السنة، في الربيع. غاص

(*) مقاطعة في روسيا.

كل شيء في هذا الغبش الخفيف، في هذه السكينة العميقة الشاملة، في الليل الدافئ المنسجم مع الظلمة التي تنشرها السحب الثقيلة الممطرة، ومن جديد دهش ميتيا وانفرجت أساريره: يا لهدوء وبساطة وبؤس القرية وهذه الدساكر والبيوت الكابية المدخنة النائمة، ويا لحلاوة العيش في هذا العالم الرحب المظلم الدافئ! غاصت الراحلة في هذا القفر، عبر الأوساخ، برزت خلف عزبة فلاح ميسور شجرة بلوط سامقة وبانت بين أغصانها العارية أعشاش الرخم السوداء. وأمام العزبة، وسط هذه العتمة، وقف متلفتا فلاح غريب الشكل بدا كأنه ينتمي إلى عصور سحيقة مغرقة في القدم، بقدميه الحافيتين، بسترته الفلاحية الفضفاضة المهترئة وبقبعة من جلد الغنم على شعر سابل طويل... وهطل مطر حلو دافئ عبق.

فكَّر ميتيا في الفتيات، في الصبايا والنساء الشابات النائمات في جوف هذه العزبات، وبكل ما يتصل بعالم المرأة الذي تعرّف عليه عن قرب في هذا الشتاء المنصرم مع كاتيا، واتحد كل ذلك في كل واحد - كاتيا، الصبايا، الليل، الربيع، رائحة المطر، رائحة الأرض المحروثة الجاهزة للإخصاب، رائحة عرق الخيل وذكرى رائحة قفازات جلد الماعز.

في القرية سارت حياة ميتيا في البداية وادعة حلوة.

في الليل وهو في طريقه من المحطة بدت صورة كاتيا كأنها قد غامت أو ذابت في هذا المحيط. لكن لا، كان ذلك تخيلا فحسب، تخيلا استمر لبضعة أيام أخر... إلى أن صحا ميتيا وتآلف مع الانطباعات الجديدة لبيت الأهل والطفولة، مع القرية وربيعها، مع عري الطبيعة ومع فراغ هذا العالم الذي يتحفز من جديد بهمة لتفتح وولادة جديدة.

دارة غير كبيرة، بيت عتيق، ملكية متواضعة لا تتطلب عملا كثيرا أو إدارة صعبة. وهكذا بدأ ميتيا حياة هادئة. شقيقته آنيا تلميذة في الصف الثاني الثانوي وشقيقه كوستيا في مدرسة الكاديت(*) يدرسان في مدينة أريول ولن يعودا إلى القرية قبل بداية شهر يونيو. وأمه أولغا بتروفنا مشغولة، كعادتها، بإدارة ضيعتها يساعدها في ذلك وكيل مشرف، تقضي جل وقتها في الحقل وتنام باكرا مع حلول الظلام.

في اليوم التالي، بعد أن نام ميتيا اثنتي عشرة ساعة واغتسل، خرج من غرفته المشمسة (نوافذها تطل على الحديقة وعلى وجهة الشرق) وعبر الغرف الأخرى كلها، فأحس بكل كيانه ببساطة حميمة وادعة تنعش النفس والجسد. في كل مكان كان كل شيء في محله كسابق عهده منذ سنوات كثيرة ماضية، الأشياء ذاتها والروائح نفسها، وكل شيء قد رُتب لمجيئه وغسلت أرضيات

(*) مدرسة عسكرية متوسطة في روسيا القيصرية لإعداد أبناء طبقة النبلاء من أجل الخدمة في صفوف القوات المسلحة (المترجم).

الغـرف بينمـا مُـسح فـقط الممـر المفـضي إلى المدخل، إلى جناح الخدم كما كانوا وما زالوا يسمونه كذلك حتى الآن. أمام النافذة بجانب البـاب المؤدي إلى الشرفة شـدّت العاملة باراشـا - التي علا وجهها النـمش - قامتهـا إلى أعلى، وهـي تصـفـر، مـاسـحـة الزجـاج الذي عكس صـورتهـا. قـالت له باراشـا هـذه الحـافـيـة الـقـدمين، البيضاء السـاقين، وهـي تسـحب خـرقة المسح الكبيـرة المبللة بالماء الساخن من السطل، قالت له بطيبة وبلهجة قروية عفوية ماسحة العرق عن وجهها المتورد بظاهر ذراعها المشمّرة:

- اذهب وتناول الشـاي... مـامـا غـادرت قبل الفـجـر إلى المحطة مع الوكيل.

قد لا تكون سمعت...

هنا تذكر كاتيا بقوة: أحس بجاذبيـة تلك الذراع العـارية، بـانشـداد إلى الجسـد الأنثـوي المشـدود والممطوط إلى أعلى، إلى التنورة التي انحسرت عن سـاقين عبلتين، فـأحس، بفـرح، بسلطة كـاتيـا، بانتمـائه إليها وبحضورها القوي في كل انطباعات هذا الصباح.

وغدا هـذا الحضور أقوى وأشد ضغطا، وأكثر روعة أيضـا، مع كل يوم جـديد، لاسيـمـا بعد أن عـاد إليـه وعـيـه وهدأ بالـه، فنسي صورة كاتيـا المعتـادة التي طالما عذبته آنئذ في موسكو، وطغت على الموقف الراهن صورة لها أنشـأتها الرغبات والأمنيات.

إنها المرة الأولى التي يعيش فيها ميتيا مع أهله وهو في سن الشباب. ولقد أحس تغيرا في سلوك أمه نحوه بالمقارنة مع الماضي... والأهم من ذلك أنه يعيش الآن، وللمرة الأولى، حبا فعليا تحقق فيه ذلك الذي طالما فكر فيه وانتظره سرا وبلهفة منذ الطفولة والمراهقة.

يتذكر، على نحو غائم، أنه في الصغر قد رف قلبه إزاء حالة لا تقوى لغة الإنسان على التعبير عنها. ففي وقت ما ومكان ما، وعلى الأرجح في الربيع، في الحديقة قرب شجيرات الليلك (تتذكر الرائحة الواخزة للجعلان الطائرة) وقف - وكان آنئذ حدثا تماما - مع امرأة شابة (مع مربيته على الأرجح) وفجأة برق أمامه شيء ما كأنه النور السماوي تماما، لم يعد يتذكر إن كان ذلك وجهها أم رداءها الداخلي الذي ستر صدرا ناهدا... واشتعل شيء ما في داخله للحظة كموجة عبرت. لكن كان ذلك كما في الحلم. وكما في الحلم كان أيضا كل ما حصل معه بعدئذ في الطفولة، في المراهقة وفي المدرسة الثانوية. اعترته حالات خاصة من الانبهار بهذه أو تلك من الفتيات اللائي كن يأتين بصحبة أمهاتهن لحضور أعياد ميلاده في الطفولة، وأحس آنئذ بميل غامض إلى ذلك الكائن الصغير (المتميز عن غيره) الذي يرتدي التنورة ويعقد خصلة شعره بربطة حريرية. وكانت (حصل ذلك فيما بعد في المدينة الكبيرة، في مركز المحافظة) حالات من الإعجاب الواعي بتلميذة من المرحلة الثانوية استمر خريفا كاملا: كان يشاهدها، غالبا، في المساء متسلقة شجرة خلف سور بستان مجاور. يتذكر رشاقتها، شقاوتها، تنورتها البنية، ملقط شعرها المستدير، يديها الوسختين، ضحكاتها، صوتها الرنان. كان ميتيا يفكر في كل ذلك

ويغرق أحيانا من الصباح حتى المساء بين لهفة وحزن وبكاء مشتهيا متلهفا باستمرار إلى شيء ما منها. بعدئذ تلاشى كل شيء من تلقاء ذاته... ثم طرأت من جديد حالات جديدة حميمة غامضةاستمرت فترة زمنية أطول، كما برزت، في فترة لاحقة، مسرات ومواجد حادة إثر حب مفاجئ في حفلات للرقص أقامتها المدرسة... كما شعر بحالات تعب جسدي، ودغدغدت قلبه آمال وتوقعات مبهمة...

ولد ميتيا ونشأ في القرية... لكن عندما دخل المدرسة الثانوية صار لزاما عليه أن يقضي فصل الربيع في المدينة باستثناء عام واحد هو ما قبل الماضي، إذ مرض عندما زار القرية في عيد الصوم الكبير فأمضى شهري مارس وأبريل في بيت الأهل للنقاهة. كان ذلك زمنا لا ينساه. لزم الفراش قرابة أسبوعين، وكل ما فعله خلال ذلك إدامة النظر من النافذة وملاحظة كيف تتغير، مع مرور كل يوم، ومع ازدياد الدفء والنور، السماوات، الثلج، الحديقة، جذوع وأغصان الأشجار. رأى في الصباح كيف تدخل الشمس إلى غرفته وتتكاثف أشعتها ويعم الدفء المكان، ثم يزحف الذباب متنشطا على زجاج النافذة... ورأى، في يوم آخربعيد الظهر، الشمس خلف البيت من الجهة الأخرى والثلج الربيعي الباهت حتى الزرقة في النافذة وقطع السحب الكبيرة البيضاء الضاربة إلى الزرقة عند ذؤابات الأشجار... ورأى لاحقا في يوم آخر في السماء الغائمة فسحات تتلألأ صفاء، وعلى جذوع الأشجار بلل لمّاع، بينما تتساقط خلف النافذة قطرات من على السطح لا تشبع العين من الاستمتاع بمرآها... بعد ذلك حل أوان الضباب الدافئ، ثم المطر، فذوبان الثلج الذي تلاشى خلال بضعة أيام، ثم تحرك النهر فتكشف وتعرى من جديد سواد الأرض في

البستان وفي فناء البيت... وظل ميتيا يتذكر، لفترة طويلة، أحد الأيام في أواخر شهر مارس عندما ركب حصانه للمرة الأولى وسار في الحقول... لم تكن الشمس ساطعة، لكن بدا أثرها واضحا في التماع أشجار البستان الباهتة. في الحقل كان الهواء طريا منعشا وجذامير الحصيد متينة ذات لون بني كاشف، وفي المناطق المحروثة برز الوحل والبقع السوداء على مد النظر... وهكذا سار معتليا ظهر جواده عبر الحصيد والأرض المحروثة إلى الغابة في منحدرات ووهاد، وخشخشت تحت حوافر الحصان أوراق الشجر المستترة المتساقطة من العام الماضي، بعضها جاف بلون القش وبعضها الآخر رطب مبلل بني اللون، كما تجاوز أحيانا حفرا ووهادا غطت سطحها الأوراق واستنقع الماء في قاعها، ونفرت هلعة من تحت الأغصان الصغيرة، أمام وبين قائمتي الحصان، دجاجات الغابة ذات اللون الذهبي الغامق... ماذا عنى له كل هذا الربيع، لاسيما في هذا النهار الذي عبّ من هوائه المنعش في الحقول، بينما تقافز جواده فوق جذامير الحصيد الرطبة ونتوءات الأرض السوداء البارزة متنفسا بملء منخريه شاخرا صاهلا بقوة حيوانية هادرة؟ بدا له آنئذ أن هذاالربيع هو تحديدا حبه الأول الحقيقي، وهو الأيام المفعمة بالافتتان الغامر بأحد ما، بشيء ما عندما أحب كل التلميذات وكل البنات. لكن كم بدا له قصيا ذلك الزمن الآن! وكم كان آنئذ صبيا بريئا طيب القلب قليل الأحزان والمسرات والأحلام! حلما، أو بالأحرى ذكرى شيء ما بهيج كان آنئذ كل حبه العذري غير المادي، لكن الآن في العالم ثمة كاتيا التي تحتوي وتجسِّد هذا العالم في ذاتها وتنتصر عليه كله.

مرة واحدة، في هذه الفترة الأولى، ذكّرت كاتيا بنفسها شرا.

فذات مرة، في وقت متأخر مساء، خرج ميتيا إلى عتبة الدار الخلفية. كان ثمة ظلام وهدوء ورائحة رطوبة منبعثة من الحقول... وبسبب الغيوم الليلية برقت نقاط ضوء صغيرة متناثرة فوق المعالم غير الواضحة لحديقة المنزل. فجأة دوى، في مكان بعيد من الحديقة، صراخ حاد، انداحت في إثره عجقة نباح وعواء في جنبات الحديقة. ارتعد ميتيا، تسمر في مكانه، ثم هبط، بعدئذ، بحذر، من العتبة ودخل في ممشى معتم خيل إليه أنه محاط بقوى شريرة من جميع الجهات، ثم توقف ثانية وراح يصغي:ما هذا؟ أين هو ذلك الكائن الذي دوى صراخه، فجأة، بشكل مرعب هنا؟ قد تكون بومة، أو ما شابه ذلك من حيوانات الغابة، فاجأها بينما كانت في حالة حب أو جماع، فنفذت منه ليس أكثر. ساد بعد ذلك سكون حذر كما يحصل في العتمة عقب توجس خطر ما. فجأة تردّد من جديد عواء حاد في مكان ما قريب وسُمعت في أعالي صف أشجار الممشى خشخشة تبين إثرها أن هذا الشيطان قد انتقل إلى مكان آخر في الحديقة.

هناك نباح في البداية، تبع ذلك صوت أشبه بطفل متوجع متوسل شاك، ثم راح يصيح بتلذذ وجناحاه يصفقان، تلا ذلك زعيق وما يشبه ضحك أزعر يدغدغ. أصاخ ميتيا سمعه ورنق بصره في العتمة وجلا. لكن، فجأة، سُمعت خبطة سقوط الشيطان على الأرض، ثم شق طريقا له بسرعة خاطفة مع زعيق من الأعمال متواصل، ثم همد... وكأن الأرض قد ابتلعته. انتظر

ميتيا، عبثا، لدقائق أخرى، استئناف هذا الرعب الجنسي، ثم عاد بهدوء إلى البيت... جثم عليه، طوال تلك الليلة، خلال نومه، كابوس ثقيل من الأحاسيس والهواجس والأفكار الكريهة التي تحول إليها حبه في موسكو في شهر مارس.

في الصباح، مع الشمس، تبددت كل متاعبه وعذاباته الليلية. تذكر كيف بكت كاتيا عندما قرر أخيرا أن عليه أن يغادر موسكو لفترة... وتذكر فرحتها وتمسكها بفكرة قدومه إلى القرم في مطلع يونيو، وكيف أعانته في استعداداته قبيل السفر، وكيف أتت لوداعه في محطة القطار... أخرج صورتها وتملّى طويلا طويلا رأسها الصغير الجميل وأدهشه صفاء عينيها المدورتين بعض الشيء ونظرتها المباشرة الواضحة... كتب إليها، إثر ذلك، رسالة حميمة طويلة مفعمة بالثقة والإيمان بدوام حبهما، وأشار إلى أنه يستشعر عميق حبه لها في كل ما يحسه ويعيشه.

تذكر ما عاناه لدى موت أبيه قبل تسع سنوات. كان ذلك في الربيع أيضا. في اليوم الثاني للوفاة دخل الصالة التي سُجِّي فيها الجثمان حزينا كسيرا. رآه ممددا على طاولة ببزة النبلاء الفخمة الأنيقة، مع لحية سوداء كثة وأنف مصفر، صدره مرتفع قليلا استلقت عليه يداه الشاحبتان. خرج إلى العتبة، ألقى نظرة على غطاء النعش الضخم المركون بجانب الباب والمرصع بديباج مذهب - وفجأة أحس: في العالم موت! الموت موجود في كل شيء: في نور الشمس، في العشب الربيعي النامي في فناء البيت، في السماء، في الحديقة... هبط إلى الحديقة، دخل ممشى الزيزفون المتلألئ تحت النور، ثم عرّج نحو المماشي الجانبية المشمسة أكثر،

نظر إلى الأشجار وإلى الفراشات الأولى البيضاء، وسمع غناء العصافير الحلو في مطلع الربيع - لكن كان كمن لا يسمع ولا يرى: فالموت شامل وفي كل شيء. مَثُلتْ في خاطره، وكأنما أمام ناظريه، تلك الطاولة المخيفة في الصالة والغطاء المركون بجانب الباب. نور الشمس ليس كما عهده في السابق، والشعب قد تغيّرت خضرته، والفراشات على نحو آخر تحط على العشب الربيعي الدافئ في أعلاه - كل شيء كان على غير ما ألفه قبل يوم من الآن، كأن كل شيء قد تحوّل وتغيّر بسبب قرب نهاية العالم، وغدت كئيبة، مضجرة روعة الربيع وشبابه الدائم... استمرت هذه الحال طويلا طويلا وأحسها طوال ذلك الفصل كرائحة حقيرة مخيفة مقيمة في هذا البيت رغم أنه شُطف وغسل مرات كثيرة بعد ذلك، كما لعب الهواء فيه عبر أبوابه ونوافذه المفتوحة.

يعاني ميتيا الآن ما يشبه الحالة الموصوفة سلفا، لكن بشكل آخر معكوس. فهذا الربيع، ربيع حبه الأول غير مشابه لأي ربيع آخر عاشه في السابق. تغير وانقلب العالم مرة ثانية،كأنما امتلأ بشيء ما جديد، لكن غير كريه، غير مقيت، بل على العكس ممتزج ومتناغم، على نحو جميل، مع فرح الربيع وشبابه. وهذا الجديد ليس سوى كاتيا، أو بالأحرى أروع شيء في العالم تمناه وطلبه ميتيا منها. والآن مع مضي هذه الأيام الربيعية تطلب منها أكثر فأكثر. والآن، أيضا، بدا له وهي غائبة وصورتها ماثلة في خاطره - لكن صورتها المشتهاة - أنها على العهد ملبية متطلباته، متجاوبة معه، ومع مضي كل يوم أحس أكثر فأكثر بوجودها معه وفي كل ما وقعت عليه عيناه.

اقتنع وسُرَّ بذلك في الأسبوع الأول لإقامته في البيت. كان الوقت في ذلك الحين عشية الربيع، جلس مع كتابه خلف نافذة غرفة استقبال الضيوف ونظر عبرها، من خلال جذوع أشجار الصنوبر والتنوب خلف السياج، إلى النهر العكر الجاري في المروج وإلى القرية القابعة في سفح الجبل خلف النهر: طيور الرخم على أشجار البتولا الهرمة في بستان الضيعة المجاورة تصيح، من دون كلل، من الصباح إلى المساء... مظهر القرية القابعة في السفح ما زال رماديا كئيبا - بضع صفصافات فقط اكتسين برداء أخضر مصفر... دخل الحديقة: ما زالت أشجارها عارية غير مكتملة الإهاب، لكن تناثرت على الأرض بين الأشجار أزهار صغيرة فيروزية اللون ونبقت أكمام على بعض الشجيرات الواطئة على طول الممشى، وبرزت زهرات صغيرة بيضاء في أول تفتحها على كرزة قائمة في منخفض من الأرض في القسم الجنوبي السفلي من الحديقة... ثم خرج إلى الحقل: ما زال قفرا رماديا، جذامير الحصيد فيه كالأشواك النابقة، والدروب داخلة ناشفة بلون بنفسجي حائل... كل ذلك كان عري فتوة، أوان انتظار وترقب، كل ذلك كان كاتيا. فضرب من الخيال الاعتقاد للحظة أن أحدا، أو أمرا ما، قادر على تحويل أو صرف اهتمامه عنها: لا العاملات الخادمات في الدارة ولا العمال الأجراء، لا القراءة، لا النزهات، لا زيارات المعارف في القرية، لا أحاديثه مع أمه ولا خروجه على متن عربات الركوب مع الوكيل (عسكري متقاعد، خشن، ضخم الجثة) إلى الحقول...

مرّ أسبوع آخر. هطل مطر غزير في إحدى الليالي، أعقبته في اليوم التالي شمس حارة دفعة واحدة وعلى نحو غير مألوف.

تخلى الربيع عن وجله ونفض شحوبه، وبدأ يتبدل كل شيء، وعلى مرأى العين، لا بالأيام، بل بالساعات: جذامير الحصيد غدت سوداء طرية ملساء، اخضرت تخوم الحقل، اشتدت زرقة السماء، ارتدت الحديقة، بتسارع ملحوظ، ثوبها الأخضر الطري الناعم، تفتح الليلك وعبقت رائحته، وظهرت جماعات الذباب الكبير الملتمع مع زرقة على أوراقه الصقيلة الخضراء الداكنة وعلى بقع الضوء الساخنة على الطرقات. نبذت على أشجار التفاح والإجاص وريقات متفرقة دقيقة الحجم وامتدت شبكة أغصانها الملتوية بيضاء طرية تحت الأشجار الكبيرة الأخرى، وازدادت بياضا وتشابكا يوما بعد يوم... في هذا الأوان والجو الفاتن عاين ميتيا وتابع كل هذه التحولات والتبدلات الربيعية الحاصلة حوله... لكن كاتيا لم تُخل الساحة، لم تتراجع، لم تضع في غمرة هذه التحولات، بل على العكس شاركت وكانت حاضرة في كل ذلك، نشرت حسنها وجمالها المتفتح مع تفتح الربيع، مع هذه الحديقة المتألقة البياض ومع السماء التي تستعيد زرقتها الغامقة.

- ١٢ -

ذات يوم قبيل المساء، دخل ميتيا إلى الصالون المتألق تحت نورالشمس المتأهبة للغروب، لشرب الشاي، فوقع نظره بغتة قرب السماور على رسالة انتظرها عبثا طوال هذا الصباح. أسرع نحو الطاولة (منذ زمن كان يجب على كاتيا أن ترد ولو على واحدة من عدة رسائل كتبها لها) وبرز ملتمعا أمام عينيه مغلف صغير، ظريف الشكل مع كتابة عليه بخط غير جميل، لكن معروف. التقطه وخرج من البيت، ثم إلى الحديقة، فإلى الممشى الرئيسي فيها. وصل إلى أبعد جنباتها، إلى المنخفض الواقع في جانبها الجنوب السفلي، ثم توقف وفتح المغلف بعد أن تلفت حوله يمينا وشمالا. كانت الرسالة قصيرة مختصرة، بضعة أسطر، لكن كان ميتيا في حاجة إلى قراءتها خمس مرات حتى فهمها أخيرا، وعص قلبه «حبيبي الوحيد!». قرأ وأعاد القراءة، ومادت الأرض تحت قدميه لصيغة الخطاب هذه. رفع بصره، فوق الحديقة تألقت السماء بهية، فيما حوله ازدهت الحديقة ببياضها، وزقزق هزار - مستشعرا برودة السماء - في الشجيرات الصغيرة البعيدة الطرية الخضرة، تضرج وجهه بالحمرة وسرت رعشة في شعر رأسه.

عاد إلى البيت بخطى بطيئة. كأس حبه مترعة حتى الحواف... حملها بحذر وعناية في أعماقه خلال الأيام التالية، منتظرا، بدعة وسعادة، رسالة جديدة.

ارتدت الحديقة حلة مزركشة. شجرة القيقب الضخمة الهرمة، التي تظل القسم الجنوبي من الحديقة، المرئية من كل الجهات، برزت أكثر فأكثر مع اكتسائها بالخضرة الكثيفة الطرية: الممشى الرئيس الذي اعتاد ميتيا أن يسرح بنظره نحوه من شباكه صار أكثر ارتفاعا وأبهى منظرا. فذؤابات أشجار الزيزفون العتيقة اكتست، وإن بشكل غير تام، وشيا أخضر ناعما وسمقت وتمددت حانية بنعمائها على الحديقة.

إذن - شجرة القيقب الضخمة البهية المنظر، صف الأشجار الخضراء الكاشفة اللون على جانبي الممشى، أغصان التفاح والإجاص البيضاء المتشابكة والمتلوية، الشمس وزرقة السماء، وهذا البساط الممتد في أرض الحديقة وفي وهداتها وعلى طول المماشي والدروب الجانبية وخلف الجدار الجنوبي للمنزل المفروش بأغصان الليلك والأكاسيا وعنب الثعلب والأرقطيون والقراص... كل ذلك كان خلابا مذهلا بكثافته وطراوته وجدته.

وهكذا بدا فناء المنزل الأخضر النظيف أضيق في ظل هذا المد الزاحف من الخضرة نحوه من كل الجهات. كما بدا المنزل ذاته أصغر وأجمل، أو كأنه على موعد مع ضيوف قادمين. فالأبواب والنوافذ مشرعة طوال الوقت في جميع الغرف، في الصالون الأبيض، في غرفة الاستقبال الزرقاء التقليدية الطراز، في غرفة الجلوس بلوحاتها الجدارية ومنمنماتها البيضاوية الشكل، وفي صالة المكتبة الكبيرة المشمسة ذات الخزانات المصنوعة من خشب الدردار الممتدة على طول الجدران والأيقونات القديمة. وفي كل

مكان امتدت ببهاء نحو هذه الغرف أشجار بخضرة فاتحة وغامقة مع زرقة تسطع من خلال الغصون.

لكن لا رسائل: فقد خبرَ ميتيا نفور كاتيا من كتابة الرسائل، وأنه من الصعب عليها استجماع همتها والجلوس خلف طاولة الكتابة واستحضار القلم والورقة والمغلف وشراء الطابع البريدي... لكن لم تعد مثل هذه التصورات العقلانية الموضوعية تساعده كما يجب. تلاشت، لا بل اختفت الثقة الأكيدة، التي تحد من اعتداده وسعادته، التي دعته، قبل بضعة أيام، لتوقع تسلم رسالة جديدة. أحس أكثر فأكثر بالتعب والقلق. فكان يجب أن تعقب الرسالة الأولى الآن أخرى متضمنة شيئا ما أروع وأروح للنفس. لكن كاتيا صمتت.

اقتعد المنزل. لم يعد يتردد إلى الحقل أو يزور القرية إلا نادرا. صار يجلس ساعات في المكتبة يقلب المجلات القديمة المصفرة المتيبسة على الرفوف منذ عشرات السنين. في هذه المجلات صادف الكثير من الأشعار الجميلة لشعراء قدامى مثل أبيات رائعة تقول دائما المعاني ذاتها المتضمنة في جميع القصائد والأغنيات منذ بداية خلق العالم، والتي يعيشها الآن، أو يمكن أن تنسحب، بشكل أو بآخر، على حالته وعلى علاقته بكاتيا. وهكذا قضى ساعات طويلة يوميا جالسا في كرسيه بجانب خزانة الكتب المفتوحة معذبا نفسه بقراءة وترديد أبيات شعرية مثل:

«الناس نيام يا صديقي، فلنذهب إلى الحديقة الظليلة!
الناس نيام، ووحدها النجوم ترنو إلينا...»

كل هذه الكلمات الفاتنة وكل هذه المناشدات تبدو كما لو أنها له، صادرة عنه، أو موجهة الآن إلى واحدة لا تبارح خياله، حاضرة أبدا في كل أمر وكل مكان، كلمات فاتنة ومناشدات تثير وجيب قلبه:

«فوق المياه الرقراقة

ترفرف البجعات بأجنحتها

ويتدفق النهر هادرا.

تعالي! النجوم تتلألأ

أوراق الشجر ترفرف

والغيوم تتململ...»

أغمض عينيه مرات مرددا هذه المناشدة ونداء القلب المفعم بقوة الحب، الظامئ إلى انتصاره... بعد ذلك نظر مليا أمامه، أصغى إلى الصمت القروي العميق المحيط به وهز رأسه بمرارة. قال في سره: «لا، لا لا تلبي النداء. فنورها يتألق في مكان ما في عالم موسكو القصي الغريب! ومن جديد ذاب القلب رقة وكلفا من حب دفين...» ومن جديد أطل وألح عليه هذا النداء وما فيه من وعيد منذربالشر:

«تعالي! النجوم تتلألأ

أوراق الشجر ترفرف

والغيوم تتململ...».

ذات مرة أفاق ميتيا من قيلولة قصيرة بعد الغداء (تناول وجبة الغداء في منتصف النهار) وخرج من المنزل على مهل قاصدا الحديقة. حيث الفتيات يعملن هناك غالبا يعزقن الأرض تحت أشجار التفاح. وهكذا رغب في الجلوس قربهن وتبادل الحديث معهن، وكان ذلك من مألوف عادته.

كان النهار قائظا ... لذا سار ميتيا في الظل الكثيف لأشجار الممشى وعاين حوله الأغصان الكثيفة المتشابكة ذات اللون الحليبي، لا سيما أغصان الإجاص التي رسم امتزاج بياضها بالزرقة الساطعة للسماء ظلا بنفسجيا. أزهرت أشجار التفاح والإجاص، وبدت الأرض تحتها بساطا مفروشا بالزهر الذاوي. فعبقت، في هذا الجو الحار، الرائحة الزكية الحلوة ممتزجة مع رائحة الروث الحيواني المتسخن في الفناء. وهكذا بدت هذه الروائح المتحللة، في ظل هذه السحب الخفيفة والسماء الزرقاء والهواء الدافئ، أطيب وأذكى. وإضافة إلى هذه الجنة الربيعية طنين أمهات النحل، التي تحوم وتحط على هذه الأغصان البيضاء المثقلة بالرحيق، وصداح هزار هنا وعندليب هناك...

ينتهي الممشى ببوابات تفضي إلى البيدر. ثمة إلى اليسار، عند زاوية متراس الحديقة الترابي، شجرات شوح، بانت قربها، بين أشجار التفاح فتاتان. كعادته انعطف ميتيا عند منتصف الممشى نحوهما وسار محنيا ظهره تحت أذرع وأغصان الأشجار المتفرعة الواطئة التي لامست نعومتها وجهه وفاح شميمها عسلا وما يشبه

رائحة الليمون. وكعادتها سونكا الشقراء الحمراء ما إن لحظته حتى ضحكت وقهقهت بصوت عال:

- هذا هو السيد قادم! ثم نهضت عن جذع شجرة الإجاص الثخين، الذي جلست مستريحة عليه، وتناولت معزقتها.

أما الفتاة الأخرى، غلاشكا، ففعلت عكس ذلك. تظاهرت كأن لم تره إطلاقا، واستمرت تضغط بمداسها المستور بخف من اللباد، وقد علقت به براعم بيضاء، على المعزقة النافذة في التربة وقلبت الكتلة الترابية المحفورة إلى الجهة الأخرى، بينما انداح صوتها القوي الحلو يردد أغنية: «أيتها الحديقة - حديقتي، لمن تزهرين!» كانت تلك فتاة طويلة متينة البنيان كالرجال وجدية دائما.

اقترب ميتيا وجلس على الجذع اليابس الذي نهضت عنه سونكا للتو. حدجته هذه الأخيرة بنظرة وسألته بصوت عال غير خال من الدلع والمرح:

- الآن نهضت؟ انتبه كي لا تستغرق في النوم وتنسى أمرك!

كانت معجبة به، وسعت، بشتى السبل، كي تخفي ذلك، لكنها لم تقدر، فكانت تتصرف بحرج أمامه دوما، وتهذر ملمحة أحيانا، بشكل مبهم وخفي، إلا أن حالة الشرود التي تلازمه في غدوه ورواحه ليست لله. وشكّت، كذلك، في وجود علاقة سرية له بباراشا أو أنه، في أحسن الظن، يسعى إلى ذلك. لذا اعترتها الغيرة وصارت تكلمه بلطف تارة وبحدة تارة أخرى، كما راحت ترشقه بنظرات العتاب الفاترة أحيانا والغاضبة أحيانا أخرى لتفهمه كنه مشاعرها نحوه. وأشاع كل ذلك روح الرضا والطمأنينة في نفس ميتيا ... ما زال ينتظر الرسائل من دون

جدوى، وأضناه الانتظار... ومما فاقم من ضناه عدم وجود من يمكن أن يبوح له بسره المكنون بحبه وعذاباته، ومن يتحدث معه عن كاتيا وعن آماله المعلقة على لقاء القرم، ولذا كانت حتى تلميحات سونكا عن حب ما له طيبة محببة إلى نفسه: فمثل هذه الأحاديث لامست، على نحو ما، شيئا ما حميما في أعماقه أعياه تماما، كما شكل وقوعها في غرامه بعض العزاء له وأعطاه أملا في أن تغدو هذه السونكا مدغدغة لمشاعره، أو بعض بديل لكاتيا.

سونكا الآن، وربما دون قصد منها، لامست سره الدفين عندما قالت: «انتبه كي لا تستغرق في النوم وتنسى أمرك!».
أجال بصره فيما حوله. الخضرة الغامقة لأشجار الشوح بدت في ظل سطوع شمس النهار أقرب إلى السواد، وأضافت السماء الصافية المطلة على ذؤاباتها الإبرية زرقة رائعة. كما رسمت الخضرة الطازجة للزيزفون والتنوب والدردار تحت أشعة الشمس الساطعة ظلا من الفرح الخفيف شمل كل أركان الحديقة، ونثرت بقع الضوء والظل على مروج العشب وعلى الدروب والحقول. أما الزهر الأبيض الدافئ العطر المتناثر في كل مكان فبدا فرفوري الألق والتمع حيث تخللته أشعة الشمس.
سأل ميتيا سونكا مبتسما دون قصد:

- ما الذي يمكن أن أنساه؟ فالمصيبة هي أنه ليس لدي ما أعمله.

- اسكت، لا تحلف، أصدقك دون يمين! - صاحت سونكا بمرح وبشيء من الفظاظة، وأشاع شكها في كلامه حول عدم وجود هموم غرامية له بعض الرضا في نفسه.

رفعت صوتها من جديد فجأة ناهرة العجل الأحمر ذا الصبحة البيضاء في مقدمة رأسه، وقد دلف ببطء بين شجرات الشوح واقترب منها من الخلف وراح يعلك طرف ثوبها الشيت:

- فليأخذك الشيطان! أي عجل هذا! أما كفانا شر أبيه!

- هل صحيح ما يُقال من أنك تُخطبين؟ سألها ميتيا راغبا في مواصلة الحديث معها، لكن دون أن تكون لديه مادة للحديث - ويُقال إنه شاب غني وجميل، لكنك رفضته ولا تطيعين رأي والدك في ذلك...

أجابت سونكا على الفور بحيوية وقد سرها الإطراء:

- غني لكنه غبي... أفكر الآن بذا أو بذاك...

أما غلاشكا الجدية والصموت فهزت رأسها وقالت دون أن تتوقف عن عملها:

- صرت تهذرين شرقا وغربا يا بنية! تختلقين وتكذبين على الماشي، سيسري خبرك في طول القرية وعرضها.

- اخرسي، لا تثرثري!

رغب ميتيا في مواصلة الحديث مع سونكا فسألها:

- فيمن تفكرين الآن؟ من ذا وذاك؟

لو قلت أكون قد اعترفت! أجابت سونكا - وقعت في حب راعي جدك. ما إن أراه حتى أرتعش من رأسي حتى أخمص قدمي! ثم أدارت الحديث مع تلميح إلى بارشا ابنة العشرين عاما التي صارت تعتبر في القرية عانسا. وفجأة ألقت المعزقة من يدها، وبجرأة من يحسب أنه يمتلك بعض الحق في ذلك بقوة الحب الدفين الذي تكنه للسيد، جلست على الأرض وبسطت

رجليها بجزمتها النصفية وجوربيها الصوفيين الأبلقين وأرخت ذراعيها بحرية قائلة:

- آه، لم أفعل شيئا، لكنني تعبت - صاحت بصوت عال ضاحكة - جزمتي متهرئة، جرابي من اللك - وراحت تردد الأغنية المعروفة:

«جزمتي مُهترِّئة

وجرابي من اللك» (*)

وصاحت من جديد ضاحكة:

- هلم معي إلى الكوخ، فأنا موافقة على كل شيء!

ضحك ميتيا بالعدوى. قفز عن الجذع بغير رشاقة، مبتسما من دون لباقة واقترب من سونكا، ثم جلس إلى جانبها، واضعا رأسه على ركبتيها. أزاحته، لكنه أعاد الكرة بينما خطرت بباله أبيات من الشعر قرأها مرات عديدة في الأيام الأخيرة:

«أرى الزهرة - رمز السعادة -

قد تفتق برعمها جميلا

وسقاه الندى

عالم الحب الرحب الغامض

العطر المبارك

أمامي مشرع الأبواب».

- لا تلمسني! - صرخت سونكا بهلع صريح، محاولة رفع رأسه وإزاحته عنها - وإلا صرخت بأعلى صوتي فتعوي كل ذئاب الغابة! ليس عندي شيء لك، هبّت ثم خمدت!

(*) اللك: الجلود المصبوغة.

أغمض ميتيا عينيه وسكت. أطلت الشمس من خلال أوراق وغصون شجرة الإجاص، وانعكست في شكل بقع ضوء على وجهه فدغدغته. شدّت سونكا بلطف، لكن غاضبة، شعر رأسه الأسود الكثيف وصاحت مغطية عينيه بالقبعة: - كشعر الحصان تماما! تحسس ساقيها بظاهر رقبته (أرهب ما في العالم ساقا الأنثى)، ولامس بطنها فاشتم رائحة تنورتها الشيت وبلوزتها، واختلط كل شيء مع الحديقة المزهرة ومع كاتيا، مع صداح العنادل البعيدة والقريبة، مع الطنين الحلو الخدر لأسراب النحل، ومع الهواء الدافئ العطر فتململ في مكانه، إذ غدت حتى ملامسة ظهره للأرض مثار ألم، وأضناه الظمأ إلى سعادة ما علوية... وسمع صوت خشخشة ما غير بعيدة عنه تحت شجر الشوح، ثم ما يشبه الضحك المنفلت وصياح «كو- كو! كو - كو!»، ثم سُمع شخير - قريب واضح صريح، فلهاث... وهنا استبدت به رغبة حارقة ممضة إلى كاتيا من أجل أن تمنحه هذه السعادة العلوية إلى درجة أنه قفز واقفا (مثيرا دهشة قصوى لدى سونكا) وخطا خطوتين كبيرتين جانبا.

وتحت ثقل هذه الرغبة الجارفة العارمة. إضافة إلى صدى الصوت المثير الصادر بغتة من تحت شجرة الشوح قرب رأسه، والذي تردد في جنبات هذا العالم الربيعي، خيل إلى ميتيا أن لا رسائل ستصله أبدا، وأن أمرا ما قد حدث أو على وشك الحدوث في موسكو، وأنه قد ضاع وانتهى...

في البيت وقف أمام المرآة في الصالون لدقيقة. قال في نفسه: «كانت محقة. عيناي، إن لم تكونا بيزنطيتين، فهما في أحسن الأحوال، مجنونتان. ما هذه النحافة والعظام النابقة غير المتناسقة، ما هذا الحاجب المقوّس الكالح والشعر الأسود الخشن الأشبه بشعر الحصان كما قالت سونكا؟

سمع وقعا سريعا لخطوات رجلين حافيتين خلفه، اضطرب واستدار. كانت تلك باراشا التي بادرته قائلة بمزح ودعابة، بينما تمر أمامه نحو الشرفة حاملة في يديها السماور الساخن:

- فعلا، وقعت في الغرام، تقف أمام المرآة طوال الوقت.

وضعت السماور على الطاولة التي أعدت من أجل تناول الشاي، ثم استدارت نحوه وقالت بسرعة محدقة في عينيه:

- ماما تسأل عنك.

قال في نفسه: «جميعهم يعرف ويخمّن حالي»، ثم سألها:

- وأين هي؟

- في غرفتها.

كانت الشمس قد دارت حول البيت ومالت باتجاه الغرب، فأطلت أشعتها المرآوية من خلال أغصان شجرتي الصنوبر والتنوب التي ظللت الشرفة. التمعت كذلك أغصان الشجيرات الصغيرة النامية تحتهما كما الزجاج الصقيل. وتألقت، كبساط، الطاولة المفروشة بظل خفيف مع بقع ضوء متناثرة. وحوّمت الزنابير فوق سلة الخبز، فوق حواف وعاء المربى وفوق الأقداح. عكست هذه اللوحة بمجملها صيف القرية البديع والسعادة

الفريدة التي يمكن أن تتركها في النفس. هنا سعى ميتيا كي لا تفاجئه أمه، التي تدرك، لا أقل من غيرها، وضعه، وهو في هذه الحالة، وكي يبدو في وضع من لا تثقل كاهله وتضغط على نفسه أي أسرار ثقيلة. لذا خرج من الصالون إلى الدهليز المطل على غرفته وغرفة أمه وعلى غرفتين أخريين تشغلهما آنيا وكوستيا في الصف. لم يكن ضوء الدهليز كافيا، كذلك كانت غرفة أمه أولغا بتروفنا ضاربة إلى الزرقة ومزدحمة، لكن على نحو مرتب، بأثاث البيت: شوفنيرات، طرابيزات،سرير كبير وركن أيقونات يضيئه من الأمام كالعادة مصباح، على رغم أن أولغا بتروفنا لم تكن متدينة أبدا. وخلف النوافذ المفتوحة وفي جنينة الزهورالمهملة الواقعة عند المدخل المفضي إلى الممشى الرئيس استلقى ظل واسع انبسطت أمامه مباشرة حديقة بهية زاهية بالأخضر والأبيض. وكانت أولغا بتروفنا المرأة الأربعينية السمراء النحيفة جالسة في الكنبة أمام النافذة منهمكة في شغل السنارة والتطريز غير آبهة بكل هذه المناظر التي غدت مألوفة منذ زمن بعيد بالنسبة إليها.

دلف ميتيا نحوها ووقف أمام العتبة قائلا:

- هل تسألين عني يا ماما؟

- لا، لا شيء... أردت أن أراك فقط. ففي هذه الأيام لا أراك أبدا إلا وقت الغداء - أجابته أولغا بتروفنا بهدوء من دون أن ترفع رأسها، أو تتوقف عن شغلها.

تذكّر ميتيا ما قالته كاتيا له يوم التاسع من آذار من أنها لسبب ما تخاف أمه، وتذكر المغزى الرائع الذي انطوت عليه كلماتها... وهمس قائلا:

- هل أردت أن تقولي لي شيئا ما؟

- لا شيء... سوى أنني لا أراك على ما يرام في الأيام الأخيرة... اذهب إلى مكان ما وتفسح... إلى بيت ميشرسكي مثلا... بيتهم ملآن بالصبايا... عائلة طيبة مضيافة عموما - أجابته مبتسمة.

- سأزورهم بكل سرور في وقت ما خلال الأيام القادمة... لكن تعالي نشرب الشاي... الشرفة لطيفة في مثل هذا الوقت، وهناك يمكن أن نتحدث - قال ذلك مدركا تماما أن أمه، بتعلقها وطبعها الهادئ الكتوم، لن تستأنف الخوض في مثل هذا الحديث الذي لا طائل منه.

في المساء قضى قرابة ساعتين وهو يمشي دون توقف ذهابا وإيابا انطلاقا من الصالون إلى المكتبة، حتى شباكها الجنوبي المفتوح على الحديقة مارا بغرفتي الاستقبال والجلوس. تسللت إلى نوافذ الصالون وردهة الاستقبال، من بين أغصان الصنوبر والتنوب، أشعة الأصيل الحمراء وسمعت أصوات وضحكات العمال المتحلقين حول مائدة العشاء قرب جناح الخدم. ولاح في فضاء الغرف المفتوحة وشباك المكتبة ظل زرقة عكسته سماء المساء ونجمة وحيدة زهرية اللون قابعة في الأعالي دون حركة. وعلى أرضية هذه الزرقة المنداحة تشكلت، كما في لوحة مرسومة، الذؤابات الخضراء لشجرة القيقب وكل ما تفتق في الحديقة من زهر أبيض... أما ميتيا فظل يمشي ويمشي غير آبه الآن على أي نحو يمكن أن يُفسّر ذلك في البيت... مشى ضاغطا على أسنانه ليخفض من الألم في رأسه.

توقف، بدءا من اليوم، عن ملاحظة أو متابعة كل تلك التغيرات الطارئة حوله بفعل إطلالة فصل الصيف. لا شك في أنه رأى، لا بل وتحسّس هذه التغيرات على نحو ما، لكنها فقدت الآن عنده قيمتها المستقلة، وصار استمتاعه بها مترافقا مع الألم والعذاب، الدنيا تضحك من حوله بينما كآبته تتفاقم. غدت كاتيا وسواسه وشيطانه الحقيقي، غدت الآن في كل شيء وخلف وأساس كل شيء، وبما أن كل يوم جديد يحمل له تأكيدا جديدا على أنها لم تعد له، بل منقادة إلى سلطة أخرى غريبة، مستسلمة لغيره تمنحه الحب الذي كان له، لميتيا، فقد صار كل ما في هذا الكون نافلا، لا معنى له، لا بل ومؤلما.

في الليالي لم ينم تقريبا. روعة هذه الليالي المقمرة لا نظير لها، وغدت ليالي الحديقة ساحرة فعلا: صدحت، دون كلل، مستشعرة نعيم الطبيعة الشامل، جوقة العنادل، بدت كما لو أنها تتبارى في حسن أداء الأغاني، في روعة التنغيم وصفاء الصوت. وأطل القمر الشاحب الواطئ وديعا، فوق الحديقة تماما، تحيط به وترافقه التموجات الرقيقة الرائعة للغيوم الزرقاء. في هذه الليالي كان ميتيا يستلقي مشرعا أبواب نوافذه، تطل عبرها، طوال الوقت، الحديقة والقمر. وفي كل مرة فتح فيها عينيه ورمق القمر صاحت أعماقه كالممسوس:

«كاتيا!»، لكن بانفعال وألم شديدين: كيف يمكن أن يذكّره القمر بكاتيا ولماذا؟! على كل حال هذا ما يحصل له بشكل متواتر. وإزاء هذه الحالة يغشى بصره وبصيرته: كان تمني كاتيا

يغمره ويضغط عليه بقوة يرتعش معها كل كيانه كمن اعترته برداء، فيصلي للرب أن يراها - ولو في المنام - معه، إلى جانبه في هذا السرير. لكن، مع الأسف، عبثا وعبثا دوما... ذات مرة شتاء حضر وإياها، وبصحبة سوبينوف وشليابين، «فاوست» في مسرح البولشوي. ولأمر ما بدا له كل شيء رائعا باهرا في هذا المساء: يتذكر ذلك المكان الوافر الإنارة والقائظ العطر بسبب الحشد الكبير من الناس، والصالة والطوابق والمقصورات التي تغص بالناس المزركشين والمزينين بالذهب وأزهى الملابس، والثريا العملاقة المتألقة بالجواهر المعلقة فوق هذا الحشد، ويتذكر الصوت الهادر حينا والرقيق الحزين حينا آخر المنبعث من المسرح على إيقاع حركة قائد الجوقة الموسيقية «كان يا ما كان، في قديم الزمان، ملك طيب». وبعد أن رافق ميتيا حبيبته كاتيا في تلك الليلة الصقيعية المقمرة إلى كيسلوفكا سهر عندها حتى وقت متأخر ليلا، أُتخم قُبَلا وحمل معه شريطة الحرير الذي عقصت بها جديلتها في تلك الليلة. والآن في ليالي العذاب هذه من شهر مايو تنتابه دوما الرعشة إذ يتذكر تلك الشريطة المستلقية الآن في درج مكتبه.

نام في النهار، ثم توجه، راكبا حصانه، إلى القرية حيث محطة القطار ومكتب البريد. استمر الجو صحوا صافيا في مثل هذه الأيام من السنة. هطلت زخات متفرقة، التمعت بروق وانسكبت زخات غزيرة أحيانا، ثم أطلت الشمس من جديد بأشعتها الحارة فتركت آثارها الحميدة في الحديقة والحقول والغابات. أزهرت الحديقة وتناثرت أكمام الزهر على الأرض تحت الأشجار، امتدت

أذرع الأغصان وتشابكت واكتست خضرة يانعة. غرقت الغابة في لجة لا تعد ولا تُحصى، نما العشب فيها بكثافة وهتفت أعماقها مرحبة بالعنادل والوقاويق... ولم يعد ثمة أثر لعري الحقول، إذ غطتها الزروع الكثيفة النابتة... وتاه ميتيا نهارات بأكملها في تلك الحقول والغابات.

صار يخجل من الجلوس كل صباح على الشرفة، أو التسكع في فناء الدار منتظرا، دونما طائل، قدوم الوكيل أو أحد العمال من مكتب البريد. أضف إلى ذلك، أنه ليس لدى أي من هؤلاءالوقت للسفر يوميا مسافة ثمانية فراسخ من أجل أمور تافهة. وهكذا صار يذهب بنفسه إلى البريد، لكنه عاد دوما إلى البيت حاملا جريدة مقاطعة أرلوف، أو رسالة إلى آنيا أو كوستيا. وصلت عذاباته، نتيجة ذلك كله، حدودها القصوى... كما أن الحقول والغابات التي سار عبر دروبها قد أبهره جمالها وسعادتها، وصار يحس حتى بألم جسدي في مكان ما في صدره.

وذات مرة قدم إلى البيت في طريق عودته من البريد عبر الدائرة الإقطاعية المجاورة الخالية من سكانها والواقعة في بستان عتيق اتصل، مع مرور الزمن، بغابة صنوبر محيطة به. سار عبر الممشى الرئيس لهذه الدارة الذي يحف بها ويظلله صفان من شجرالشوح الأسود، وقاده ذلك الدرب العريض المعتم المغطى بطبقة سميكة من الفتات الأصهب للب الشجر إلى البيت العتيق القائم في آخر هذا الممشى. أضاء نور الشمس الأحمر الجاف والهادئ، المنسكب من اليسار خلف البستان والغابة، أسفل الممشى من خلال الضوء المتسرب بين جذوع الأشجار فالتمعت أرضيته

الملساء... وهكذا ساد سكون شامل آسر لم تخرقه سوى زقزقة بعض العنادل المتنقلة بين أطراف البستان، وعبقت حلوة روائح الشوح والياسمين التي زحفت أذرعها وأحاطت بالبيت من شتى الجهات، وتردد صدى سعادة محسوسة لأحد ما، في زمن ما، كانت تملأ هذه الأرجاء... وقفزت إلى مخيلته، فجأة، وعلى هذه الشرفة الرحبة العتيقة المحاطة بأغصان الياسمين، كاتيا في صورة زوجة شابة هلع معها فؤاده واعترى سحنته اصفرار، وشحوب مميت، صاح إثره وبصوت عال مسموع ردّد صداه كل جنبات الممشى:

- سأنتحر، سأنتحر إن لم تصلني منها رسالة في غضون أسبوع!

في اليوم التالي استيقظ من نومه متأخرا. جلس بعد الغداء على الشرفة واضعا الكتاب على ركبتيه، وراح يتطلع إلى الصفحات الملأى بالسواد المطبوع ويفكر في أمر آخر:

- هل أذهب أم لا إلى مكتب البريد؟

كان الجو حارا، وحام سرب من الفراشات البيضاء - اثنتين خلف اثنتين - فوق العشب الساخن وفوق الشجيرات الصغيرات الملتمعات. تابع هذا المشهد وسأل نفسه من جديد:

- هل أذهب، أم أقطع نهائيا هذه الزيارات المتكررة والمعيبة لمركز البريد؟

بدا الوكيل، قادما باتجاه البوابة الخارجية، على ظهر حصانه. التفت صوب الشرفة، ثم اتجه نحوها مباشرة.. أوقف حصانه وقال مخاطبا ميتيا:

- صباح الخير.أما زلت تقرأ؟ ثم ابتسم بخبث وتلفت حوله:

- هل الماما نائمة؟

- أعتقد ذلك. وماذا لديك؟

صمت الوكيل برهة، ثم قال، فجأة، بلهجة جدية:

- الكتاب جيد يا سيدي، والمعرفة ضرورية دوما.. لكن لماذا تعيش كراهب؟ هل تشكو من قلة النساء والصبايا؟

لم يجب ميتيا، بل خفض عينيه باتجاه الكتاب... بعد لأي سأله من دون أن يحوّل نظره:

- وأنت، أين كنت؟

- ذهبت إلى البريد، وطبعا لا رسائل لك سوى هذه الجريدة.

- ولماذا «طبعا»؟

- لأنهم، على ما يبدو، ما زالوا يكتبون، ولم ينتهوا من الكتابة - أجاب الوكيل بخشونة وسخرية، وقد بدا عليه الاستياء لأن ميتيا لم يُبدِ حماسة كافية لمواصلة الحديث، ثم مد يده وسلمه الجريدة ولكز حصانه مبتعدا.

فكّر ميتيا مطرقا في كتابه من دون أن يرى شيئا، وحزم أمره:

- سأنتحر!.

- ١٨ -

لا ريب في أن ميتيا نفسه يدرك أن لا شيء أكثر جهنمية من تفكيره في الانتحار... فذلك يعني إطلاق النار على نفسه، تهشيم جمجمته، توقف قلبه الفتي عن الخفقان، فقدان الإحساس والشعور والانتهاء من هذا العالم الرائع البديع الذي انفتح أمامه، والحرمان من أي مشاركة في هذه الحياة، حيث كاتيا وهذا الصيف المقبل، حيث السماء والسحب والشمس والهواء الدافئ وحقول القمح والمزارع والقرى والفتيات والوالدة والبيت وآنيا وكوستيا والشعر في المجلات القديمة... سباستنبول وبوابات بيدار والليلك في غابات الصنوبر والزان ومنتجعات ليفاديا وألوبكا(*) والرمل الحارق على الشاطئ المتألق حيث الأطفال الملوحون بأشعة الشمس والفتيات البرونزيات، وكاتيا أيضا بفستانها الأبيض أو جالسة تحت الشمسية البيضاء على الحصباء عند قدم الموج الذي يغشي الأبصار لألاؤه ويستثير الابتسامة العفوية للسعادة الطليقة.

أدرك ميتيا كل ذلك... لكن ما العمل، وهل باليد حيلة؟! كيف وإلى أين المفر من هذه الدائرة المسحورة المغلقة، حيث كلما كان العذاب أشد كان الأمر أفضل؟

ها هو يصحو، صباحا، من النوم. كانت هذه الشمس البهية أول ما لامس عينيه، وأول ما سمعت أذناه كان ناقوس كنيسة القرية القائمة خلف البستان الندي المفعم بالظلال والألق والطيور

(*) منطقتان جبليتان في شبه جزيرة القرم تطلان على البحر الأسود، اشتهرتا بالمناخ المعتدل اللطيف والشواطئ الرملية الجميلة التي يقصدها المصطافون والمستجمعون (المترجم).

والأزهار، والتي طالما ألف وأحب حتى طلاء جدرانها الأصفر كما عرفه ويتذكره منذ الطفولة... لكنها هي فكرة مرّت بخاطره ونفذت كما الخنجر حتى أعماق نفسه: كاتيا! شمس الصباح تذكره بشبابها الغض، وطراوة الحديقة برقتها، ورنين الناقوس الشجي بأناقة مظهرها... والطلاء الأصفر من عهد الجدود يستثير في أعماقه حاجته إلى كاتيا كي يقاسمها، كي تشاركه الإحساس بهذا الماضي الريفي الحميم، وحياته في هذه الدارة، في هذا البيت الذي عاش ومات فيه آباؤه والأجداد... وهنا نفض عنه الغطاء ونفر من الفراش بقميص مفتوح الياقة، بساقين طويلتين، فتى نحيفا، لكن قويا ساخن الجسم من أثر النوم... وبسرعة سحب درج مكتبه والتقط بكلتا يديه صورتها وتسمّر في مكانه محملقا فيها بشراهة واستفسار... كل الكياسة والرشاقة، كل السحر والألق والجاذبية، مما أودعه الله في الأنثى، كل ذلك في هذا الرأس الأفعوي الصغير، في تسريحتها، وفي هذا الطرف الآسر والبريء في آن معا! فمن أين له - لميتيا - القوة للصمود أمام هذا الطرف القريب البعيد، وقد يكون الغريب الآن وإلى الأبد، الذي فتح بابا إلى السعادة وخانه بصفاقة ودونما حياء؟

في ذلك المساء، حينما كان عائدا من مركز البريد عبر دارة شاخوفسكوي العريقة الخربة، بممشاها الأسود، عبّر، بدقة متناهية، بصيحته المفاجئة، حتى بالنسبة إليه، عن حالة الضيق القصوى التي بلغها. فعندما أوقف حصانه تحت نافذة مركز البريد، ورأى، وهو جالس على السرج، كيف يغوص الموظف ويدقق، عبثا، في كومة الصحف والرسائل سمع خلفه ضجة

القطار الداخل في المحطة، وانتابته، إثر هذه الضجة، ومع انبعاث رائحة دخان العربة، رعشة سعادة ذكرى محطة كورسك (التي انطلق منها، وتودعه كاتيا، عائدا إلى القرية قبل حين قريب) وموسكو عموما. وعندما وصل إلى القرية بعد شاخوفسكوي لمح في كل فتاة غير طويلة القامة عابرة أمامه وفي حركة وركيها شيئا ما من كاتيا. وفي الحقل التقى بعربة ترويكا ولمح في محملها قبعتين - إحداهما نسائية - وكان على وشك أن يصيح: كاتيا! فالزهرات البيضاوات على طرف القبعة كلون قفازيها البيضاوين، والغطاء الأزرق من فرو الدب المُسدل على الأذنين شبيه بخمارها الشفاف... وكان عندما دخل ضيعة شاخوفسكوي هذه مع غروب الشمس، واشتم رائحة الشوح الحلوة وعبير الياسمين الفاخر داخله الإحساس بالصيف وبالحياة الصيفية المترفة في هذه الدارة الغنية البديعة، إذ حالما لمح أشعة الأصيل الذهبية في الممشى والبيت القابع عند نهايته في الظل المسائي تصور فجأة أمام ناظريه كاتيا نازلة بكل بهائها وزهو جمالها الأنثوي من الشرفة إلى الحديقة تماما كما بدا لعينيه البيت والياسمين... وهكذا فقدَ، منذ زمن، صورتها الفعلية الحية، وصارت تخطر وتبدو له في كل يوم جديد بشكل غير عادي ومتغير. وفي هذا المساء بلغت صورتها حدا من الغرابة البهية أرعبه أكثر من واقعة ذلك النهار عندما سمع زعيق الوقواق قريبا منه.

- ١٩ -

وهكذا أقلع أخيرا عن زيارة مركز البريد، أو، على الأرجح، أرغم نفسه بقوة إرادة قصوى، أصابها اليأس، كما أقلع عن كتابة الرسائل إليها... فقد جرّب كل شيء وكتب عن كل شيء: بدءا من الإعراب لها عن حبه السرمدي الذي لا مثيل له في هذا الكون، وتوسلاته الذليلة لحبها، أو حتى «لصداقتها»، مرورا بالتظاهرات الكذوبة وغير اللائقة بأنه مريض ويكتب لها وهو طريح الفراش كي يستثير شفقتها أو بعضا من اهتمامها، وانتهاء بتلميحاته التي يهدد من خلالها في أنه لم يبق أمامه سوى حل واحد: تخليص كاتيا و«غرمائه السعداء»، من وجوده على ظهر هذه الأرض. ومع انقطاعه عن الكتابة وعن انتظار رسائل جوابية، وإرغام نفسه، بجهد جهيد، على عدم انتظار أي شيء، إلى جانب محاولته الإقلاع عن التفكير فيها، والتفتيش، بكل الوسائل والسبل، عن خلاص منها عاد ميتيا من جديد إلى القراءة، قراءة كل ما تقع عليه يده، وإلى الذهاب مع الوكيل إلى المزارع المجاورة لمتابعة شؤون أملاكه، كما راح يواسي نفسه ويردد في نفسه دون تعب: «لافرق عندي، وليكن ما يكون!»

وذات مرة كان عائدا مع الوكيل من القرية، وحصانهما يعدو بسرعة كالعادة، الوكيل من الأمام، وميتيا خلفه متمسكا بالسرج بسبب الخبب المتواصل، منقلا بصره بين نقرة الوكيل الحمراء وبين الحقول المتراكضة أمام عينيه... عندما اقتربا من البيت أرخى الوكيل اللجام وسارا مشيا... قال الوكيل مبتسما وهو يلف سيجارة من كيس تبغه:

- في تلك المرة، عبثا زعلت مني يا سيدي. ألم أكن على حق؟ الكتاب جيد، طبعا يجب أن تقرأ، لكن الكتاب لن يهرب، والمعرفة ضرورية طوال العمر.

انتفض ميتيا وأجابه بغتة وبعفوية:

- لم أر واحدة تعجب...

- كيف ذلك؟ وهؤلاء النسوة والبنات... ما حالهن؟

- كلهن يتدللن ويتعذرن - قال محاولا تقليد نبرة الوكيل وأضاف:

- لا أمان للبنات.

قاطعه الوكيل، لكن بنبرة معلم:

- أنت لا تحسن التصرف... وتبخل أيضا. الملعقة الفارغة تثقب الفم(*).

- لن أبخل لو صادف وصار الأمر حقيقة - أجاب ميتيا مباشرة ودونما خجل هذه المرة.

- إذن سيكون ما يرضيك - قال الوكيل متابعا التدخين وبنبرة الشاكي، ثم أضاف:

- أنا لا يهمني روبل أو هدية منك، كل ما أريده أن تكون مسرورا. أنظر وأنظر: سيدي مكتئب! وأقول لنفسي: لا، هذا لا يجوز، لا يجوز أن تستمر هذه الحالة. أنا أضع أسيادي في حسباني دائما. هذا هو عامي الثاني عندكم، ولم أسمع - والحمد لله - منكم ولا من أمكم كلمة غير طيبة. بعضهم، مثلا، لا يهتم بحيوانات مخدومهم - إن شبعت كان خيرا، وإن لم تشبع فإلى

(*) مثل يُقال في حق البخيل الذي يعز عليه إنفاق المال.

الشيطان. أما عندي فلا يجوز ذلك. الحيوانات غالية، وأهم من سواها. أوصي العمال: بالنسبة إلي لا يهم، لكن بشرط أن تكون الحيوانات شبعانة!

بدأ ميتيا يشك في أن يكون الوكيل ثملا بعض الشيء، لكنه حدج ميتيا بنظرة حميمية شاكية عبر الكتف متسائلا:

- إذن من أحسنُ من أليونكا؟ امرأة شيطانة، شابة وزوجها في المناجم... لكن، كما تعلم طبعا، يجب أن تدس لها شيئا ما في المقابل. أنفق، مثلا، مقابل كل ذلك، خمسة روبلات: روبلا واحدا، مثلا، للضيافة، اثنين بيدها، ولي أنا، من أجل الدخان، ما تريد...

- لا مانع، لن يحول شيء دون ذلك... لكن عن أي أليونكا تتحدث؟

- مفهوم، عن الحطابة طبعا. ألا تعرفها؟ كنّة الحطاب عامل الغابة الجديد. أحسب أنك رأيتها في الكنيسة يوم الأحد الماضي... وقتها قلت في نفسي: هذه مناسبة تماما لسيدي! لم يمض على زواجها سوى عام، وسمعتها طيبة...

أجاب ميتيا مسرورا:

- موافق، تَدبَّر الأمر.

- إذن سأسعى من أجل ذلك... سأحاول معها في الأيام القريبة القادمة. لكن، حتى ذلك الحين، لا تنم أنت. غدا ستأتي هي مع بقية البنات لتسوية الحديقة، تعال أنت أيضا إلى الحديقة... فهذا الكتاب لن يهرب أبدا. ستتشبع قراءة في موسكو إن شاء الله...

لكز الوكيل حصانه من جديد فانتهب الطريق نهبا. تمسك ميتيا بالسرج وحاول ألا ينظر في نقرة الوكيل الغليظة الحمراء، بل نحو الأفق، عبر أشجار بستانه وصفصافات القرية القائمات في المنحدر المفضي إلى النهر، نحو المروج الخضراء حول سرير النهر. شرد للحظة متفكرا في الحديث الجاري، توا، بينهما، فسرت قشعريرة في كل أنحاء جسده، أنجز نصف الصفقة. في شكل جديد مختلف عن السابق برز أمامه الآن، خلف أعالي أشجار البستان، بروج ناقوس الكنيسة الذي يعرفه منذ الطفولة، والتمع صليبه أمام نور الشمس المتأهبة للغروب.

كانت البنات يسمين ميتيا، وبسبب نحافته، الكلب السلوقي. كان من ذلك الصنف من الناس ذوي العيون السوداء المطوطة، الذين لا تكتسي ذقونهم وشواربهم بالشعر حتى في سنوات النضج - تنبت لهم شعرات متفرقة فقط طويلة قاسية وجعدة. لكنه، في اليوم التالي لحديثه مع الوكيل، حلق ذقنه وارتدى قميصا أصفر من الحرير، فبدا وجهه المتعب جميلا مشرقا.

في الساعة الحادية عشرة دلف ببطء نحو الحديقة متظاهرا بالملل والفراغ، خرج من باب المدخل الرئيسي الشمالي. وثمة جو قاتم عكر بدا فوق أسطح عنبر عربة النقل وحظيرة الحيوانات، وفوق ذلك القسم من الحديقة الذي أطل خلفه برج الكنيسة. كان الجو كابيا معتما، وانتشرت في الهواء روائح غير طيبة. استدار ميتيا خلف البيت واتجه نحو ممشى الزيزفون مجيلا بصره نحو أعالي الحديقة وإلى السماء. هبّت من الجهة الجنوبية الشرقية خلف الحديقة، حيث تكاثفت بعض الغيوم، نسمات رخية ساخنة. لم يُسمع صوت للطيور، وحتى البلابل كانت صامتة. جماعات من النحل فقط عَبَرَت، دونما صوت، الحديقة حاملة الرحيق.

كانت البنات يعملن في تسوية متراس الحديقة الترابي قرب شجيرات الشوح، يغلقن الثغرات المفتوحة فيه بسبب مرور الحيوانات، بإهالة ومراكمة التراب والروث الذي نقله العمال من وقت إلى آخر من حظيرة الحيوانات عبر المشى (كانت بقع الروث الطرية الملتمعة متناثرة عبر المشى). كان عدد الفتيات ستا. سونكا لم تحضر، فبعد أن خُطبت التزمت البيت مؤقتا

تستعد وتعد العدة للعرس. وكان ثمة بضع فتيات يهوديات، إضافة إلى أنيوتكا الحلوة وغلاشكا التي زادت عبوسا ورجولة، وأليونكا التي لمحها ميتيا مباشرة بين الأشجار، وأدرك فورا أنها هي المقصودة علما أنه لم يرها قبل الآن إطلاقا. أحس ميتيا بما يشبه التماعة برق انبجست بغتة أمام عينيه، وأن ثمة شيئا ما فيها (أو أن ذلك من باب التهيؤات) يشبه كاتيا. كان ذلك أمرا مذهلا دفعه إلى التوقف في المكان للحظة مرتبكا. ثم اتجه نحوها بخطوات واثقة من دون أن يحوّل نظره عنها.

كانت أليونكا صغيرة الحجم أيضا وحيوية. وعلى الرغم من أنها جاءت للقيام بعمل وسخ، لكنها ارتدت بلوزة شيت حسنة الشكل منقطة بالأبيض وتنورة من النوع نفسه وزنرت خصرها بزنار أسود لمّاع، وسترت رأسها بمنديل حرير زهري اللون ولبست جوارب صوفية حمراء وانتعلت فوق الحذاء خفين طريين أسودين. كانت قدماها صغيرتين شبيهتين بقدمي كاتيا الطفوليتين. وكان رأسها أيضا صغيرا، وتشبه عيناها، شكلا وإشراقا، عيني كاتيا. وعندما اقترب ميتيا منهن كانت وحدها متوقفة عن العمل، كمن أحست تميزها عن الأخريات، واقفة على المتراس تسند رجلها اليمنى على الرفش، وتتبادل الحديث مع الوكيل المستلقي تحت شجرة التفاح على سترته الممزقة البطانة، متكئا على مرفقه ومدخنا سيجارته. اقترب ميتيا، فأعطاه الوكيل مكانه على السترة، وجلس هو على العشب قائلا بلهجة ودودة ودون تكلف:

- تفضلوا، اجلسوا يا ميتري باليتش، دخنوا!

نظر ميتيا خلسة وخطفا إلى أليونكا - أشرق وجهها تحت المنديل الزهري - وجلس يدخن مسبلا عينيه (ترك التدخين وعاد إليه مرات خلال هذا الشتاء والربيع). لم تنحن أليونكا احتراما له وكأنها لم تلاحظه. استمر الوكيل يحدثها عن شيء ما لم يفهمه ميتيا، لأنه لم يدرك بداية الحديث. ضحكت هي، لكن كان من الجلي أنه لم يشارك عقلها ولا قلبها في هذا الضحك. وبعد كل عبارة كان الوكيل يدس، من دون خجل، تلميحات وإشارات وقحة بذيئة. أما هي فتجيبه بخفة ومزاح مشيرة إلى أنه تصرف إزاء أحد ما بغباء وفظاظة، إضافة إلى جبنه وخوفه من زوجته.

قال الوكيل أخيرا كمن رغب في إنهاء هذا الحديث اللامجدي:

- لا يغلبك أحد في الكلام... الأفضل أن تأتي إلينا وتجلسي معنا هنا. السيّد يرغب في أن يقول لك كلمتين.

حوّلت أليونكا نظرها إلى جهة أخرى، رفعت عن صدغيها خصلتي شعر من دون أن تتحرك من مكانها.

- قلتُ لك تعالي يا غبية!

فكرت أليونكا لبرهة، ثم قفزت فجأة بخفة عن المتراس نحوهما وقرفصت على مبعدة خطوتين عن ميتيا الجالس على السترة، ونظرت في وجهه بعينين مفتوحتين على اتساعهما:

- هل صحيح أنك، يا سيد، لا تعاشر نساء؟ كيف ذلك؟

فأجاب الوكيل:

- من أين تعرفين أنه لا يعاشر...؟

- أعرف، سمعت شيئا من ذلك. كلا لا يستطيع. هنَّ، في موسكو، كثيرات - وغمزت بعينها...

فقال الوكيل:

- لا يوجد من تناسبه، ولهذا لا يعاشر.

- وكيف لا يوجد نساء؟ وبنات في كل مكان! هذه هي أنيوتكا... من أفضل منها؟ تعالي إلى هنا يا أنيوتكا!

التفتت تلك ودندنت شيئا ما بصوتها الحلو واستأنفت عملها: فتاة سمينة قصيرة اليدين، لكن وجهها ناعم وابتسامتها حلوة.

كررّت أليونكا بصوت رنان:

- يقولون لكِ تعالي!

- لا شغل ليَ معكم. لستُ متعودة على مثل هذه الأشياء.

تدخل الوكيل وقال بنبرة تعليمية:

- لسنا في حاجة إلى أنيوتكا. نريد من هي أنظف وأفضل. نحن نعرف من نريد، قال ذلك ورمقها بنظرة معبرة جدا تركتها مرتبكة ومحمرة الوجه.

- لا، لا، لا (وغطت ارتباكها بابتسامة) أفضل من أنيوتكا لن تجدوا، وإذا كنتم لا تريدونها فهذه ناستكا. فتاة نظيفة بسمعة حسنة، وعاشت في المدينة...

قاطعها الوكيل:

- اخرسي! سيكون ما نريد. عودي إلى عملك... سيدتي تشتمني وتقول لي دائما إنكن تهملن العمل...

قفزت أليونكا بخفةغير اعتيادية، وتناولت الرفش. لكن العامل الذي أفرغ، في تلك اللحظة، عربة الروث الأخيرة صاح: «إلى

الفطور!»، ثم شد اللجام وقرقع صوت صندوق العربة الفارغ عبر الممشى.

- إلى الفطور، إلى الفطور!- ترددت أصوات عديدة للفتيات، بينما ألقين من أيديهن أدوات العمل، وقفزن فوق المتراس بسيقانهن العارية وجواربهن المختلفة الألوان نحو شجرات الشوح، إلى لفائف طعامهن.

التفت الوكيل إلى ميتيا وغمزه بخبث في إشارة إلى أن الأمور تسير على ما يرام، ثم نهض قائلا:

- إلى الفطور، فليكن ذلك...

جلست الفتيات بسرور، وكيفما اتفق، على العشب تحت صف أشجار الشوح. فتحن لفائف الطعام ووضعن زادهن - كل على طرف ثوبها بين رجليها... نبشن الفطائر وشرعن يأكلن بشهية، ثم يشربن الحليب والكفاس(*)... استمر اللغط والضحك والالتفات نحو ميتيا بعيون فضولية معبرة... وها هي أليونكا تنحني صوب أنيوتكا (أليونكا تغرق في ضحك دافنة رأسها بين ركبتيها) صارخة باستياء بصوت رنان مسموع من قبل جمهور الفتيات الجالسات في المكان:

- غبية! هذر من دون عمل؟ أي سرور؟

هنا قال الوكيل:

- هيا، ميتري باليتش، نبتعد عن الشر. فليأخذهن الشيطان!

(*) شراب روسي شعبي يحضر من نقيع الخبز المختمر (المترجم).

في اليوم التالي لم تعمل الفتيات في الحديقة، إذ كان يوم عطلة، يوم أحد. ليلا هطل المطر غزيرا، وسُمع صوت حباله يدق السطوح. كان جو الحديقة كابيا، لكنه انفرج وأشرق بعد المطر، وفي الصباح صحا الطقس تماما، وأيقظ رنين ناقوس الكنيسة ميتيا فرحا نشيطا.

غسل وجهه، لبس ثيابه وشرب قدح شاي، وخرج، من دون عجلة، قاصدا الكنيسة، رأته باراشا، فقالت له مداعبة لائمة: «أمكم سبقتكم، وأنتم كالتتري الكافر...».

كان الطريق إلى الكنيسة ممكنا إما عبر المرج بعد الخروج من بوابة الدارة الخارجية والانعطاف إلى اليمين، وإما عبر الحديقة والممشى الرئيسي، ومن ثم إلى الدرب الواقع إلى اليسار بين الحديقة والمزبلة. واعتمد ميتيا الطريق الثاني.

كان الطقس صيفيا. سار ميتيا عبر الممشى في الشمس التي التمعت أشعتها على المزبلة وفي الحقل. اقترن بريق الشمس ورنين الناقوس على نحو طيب جدا مع هذا الصباح القروي الجميل، حيث اغتسل ميتيا وسرّح شعره الأسود المبلل اللماع واعتمر القبعة التي يرتديها الطلاب عادة.

وهكذا بدا، فجأة، كل شيء على خير ما يرام إلى درجة أنه، على رغم أرقه ليلا وعلى رغم الأفكار والأحساسيس المقلقة التي انتهبته، أُفعم، فجأة، بالأمل في نهاية ما سعيدة لكل عذاباته والخلاص منها. لعب جرس الكنيسة مناديا والتمعت، في الأمام، المزبلة تحت أشعة الشمس الدافئة، نقار الخشب توقف رافعا

عرفه وأسرع مختفيا عبر قشرة جذع شجرة الزيزفون، ثم إلى أعاليها المشمسة الخضراء، النحلات المخمليات ذوات اللون شبه الأسود الضارب إلى حمرة غاصت في أزهار الزوايا المشمسة من الحقول ترشف الرحيق، الطيور ملأت جنبات الحديقة بتغريدها وغنائها الحلو اللذيذ... كل شيء بدا كما كانت عليه الحال مرات كثيرة في طفولته وفي يفاعته... فتذكر كل روعة ونعيم الزمن الماضي، وعادت إليه، فجأة، الثقة بالنفس، وأن الله رحيم، وأنه، ربما يمكن العيش في هذا العالم من دون كاتيا.

قال لنفسه فجأة:

- سأزور بيت ميشرسكي حتما!

هنا رفع بصره فرأى في تلك اللحظة، وعلى بعد عشرين خطوة، أليونكا مارة بمحاذاة البوابة الخارجية. كانت ترتدي أيضا منديلها المزهر الحريري وتنورة سماوية أنيقة مع حاشية وتنتعل حذاء جديدا مع حدوة. مرت بسرعة هازة ردفيها، دون أن تراه، بينما توارى هو جانبا للحظة خلف الأشجار.

بعد أن ابتعدت، رجع، واجف القلب بسرعة، إلى البيت. فقد أدرك فجأة أنه إنما قصد الكنيسة بهدف مشاهدتها، وأنه لا يجوز، أو لا يجدر أن يراها في ذلك المكان.

أثناء تناول الغداء حضر ساعي البريد حاملا برقية تقول إن آنيا وكوستيا قادمتان غدا مساء. لم يُبال ميتيا بهذا النبأ إطلاقا.

بعد الغداء استلقى على الديوان المجدول من الأغصان في الشرفة، مغمضا عينيه، وقد أحس بالشمس الدافئة الزاحفة نحوه وأصغى إلى طنين الذباب. وجف قلبه وعلق في رأسه سؤال يحتاج

إلى جواب، أو حل ما: وماذا بعد ذلك مع أليونكا؟ متى يتقرر الموعد أخيرا؟ لماذا لم يسألها الوكيل أمس مباشرة إن كانت موافقة أم لا، وإن كانت موافقة فأين ومتى؟ وعدا ذلك كان يؤرقه ويقض مضجعه أمر آخر: هل يجوز أن يتخلى عن قراره الحازم حول قطع زيارته إلى مركزالبريد؟ وهل من ضير لو زاره مرة أخرى وأخيرة؟ هل في ذلك نيل جديد من كرامته؟ هل ذلك عذاب للنفس لا فائدة منه في أمل تافه؟ لكن وماذا يمكن أن تضيف زيارة أخرى (وهي في الواقع مجرد نزهة لا أكثر) إلى عذاباته؟ أليس من الواضح تماما أن علاقة موسكو قد انتهت تماما إلى الأبد؟ وماذا عليه أن يفعل الآن بوجه عام؟

وفجأة سمع صوتا خفيضا خلف الشرفة يناديه:

- سيدي! سيدي هل أنت نائم؟

فتح عينيه بسرعة. وقف أمامه الوكيل بقميصه الشيت الجديد وقبعته الجديدة. كان وجهه منفرج الأسارير مع مسحة من النعاس والسكر. قال له هامسا:

- سيدي، هيا نذهب بسرعة إلى الغابة. قلت للسيدة أمكم إن علينا أن نذهب إلى تريفون بخصوص المنحلة. فلنذهب بسرعة ما دامت نائمة، فقد تنهض وتغيّر رأيها... فلنأخذ بيدنا ضيافة، شيئا ما له. أقدم له شرابا، وأنت تشاغله ريثما تسنح لي فرصة همس كلمتين في اذن أليونكا. هيا اخرج فقد أسرجت الحصان و... قفز ميتيا، وتناول قبعته وخطا في اتجاه عنبر عربة النقل، حيث رُبطت عربة خفيفة على مهر.

قفز المهر، كما الطير، خارجا من البوابة. توقفا لدقيقة قرب حانوت بمحاذاة الكنيسة، وتناولا رطلا من دهن الخنزير وزجاجة فودكا، ثم تابعا طريقهما.

بدت أمامهما عربة خارج سور الدارة وقفت أمامها متبطلة أنيوتكا. صاح بها الوكيل مازحا بخشونة، فتفوه بكلام بذيء لا يتلفظ به سوى المخمورين، ثم نتر اللجام بقوة وساط بطرفه كفل المهر، فرمح أكثر.

تمسك ميتيا بكل قوته كي يتوازن في جلوسه مع عدو المهر. أحس بحرارة الشمس تسخن نقرته، وبالهواء الدافئ المشبع برائحة سنابل القمح في بدء يبوسها وغبار الطريق وشحم العجلات، يلفح وجهه. تمايلت السنابل بلونها الرمادي، الفضي فبدت أشبه بفرو رائع متماوج، وغنت البلابل وهي تحط نازلة من عل، وبدت الغابة أمامهما ضاربة إلى الزرقة...

بعد ربع ساعة دخلا الغابة. ومضى المهر في عمقها يضرب بحافريه قرامي وجذوع الأشجار رامحا في دربها الظليل المزركش ببقع ضوء الشمس وبالأزهار المتنوعة الألوان الطالعة بين العشب النامي على جانبيه. بدت لهما أليونكا في ثوبها الأزرق وجزمتها النصفية جالسة أمام حجرة الحراسة تخيط شيئا ما. لوّح لها الوكيل مهددا بالسوط، ثم أوقف المهر أمام عتبة العزبة. أدهش ميتيا عطر الغابة العبق الطري وخضرة البلوط الندية ونباح الكلاب الحاد، وقد أحاطت بهما فرددت جنبات الغابة صدى نباحها الذي هدأ تدريجيا بينما صارت الكلاب تلعب بأذيالها مرحبة.

نزلا وربطا المهر تحت النافذة على جذع شجرة متيبس اقتلعته صاعقة، ثم ولجا عبر المدخل المعتم.

كانت حجرة الحراسة نظيفة مرتبة ملمومة وحارة من الشمس التي نفذت أشعتها عبر نافذتيها من خلف الغابة، وبسبب الموقدة التي أشعلوا نارها صباحا لتحضير فطائر العجين. ما إن رأتهما حماة أليونكا - العجوز فيدوسيا النظيفة الطيبة المرتبة المظهر - حتى نهضت من مكانها - كانت جالسة خلف طاولة وظهرها مقابل النافذة المشمسة التي تحوّلت إلى مأوى للذباب - وانحنت احتراما لهما. وبعد السلام وتبادل التحية جلسا وبدآ يدخنان.

سأل الوكيل:

- وأين تريفون؟

- نائم في عنبر المؤونة، سأوقظه حالا - قالت فيدوسيا.

همس الوكيل في أذن ميتيا وغمز بكلتا عينيه لدى خروج العجوز قائلا:

- الوضع على ما يرام!

لكن ميتيا لم يلحظ أي وضع من ذلك القبيل الذي عناه الوكيل، لا بل رأى الوضع محرجا، إذ بدا أن المرأة العجوز فيدوسيا قد أدركت جيدا الغرض الذي قدما لأجله. ومن جديد ألحت عليه الفكرة التي ما برحت تقلقه لليوم الثالث: «ماذا أفعل؟ أكاد أجن!». أحسّ بأن إرادة خارجية تخضعه أسرع فأسرع لمشيئتها وتقوده نحو هاوية سحيقة. لكنه حاول ضبط أعصابه متظاهرا بالبساطة والهدوء وجلس يدخن ويجيل بصره في أنحاء الحجرة.

وأخجله الأمر أكثر عندما خطر بباله أن سيدخل عليهما الآن الموجيك(*) تريفون الذي يُقال إنه شرير وذكي، وسيفهم كل شيء حتى أكثر من فيدوسيا. لكن خطرت بباله فكرة أخرى: «وأين تنام هي؟ على هذا السرير الخشبي، أم في عنبر المؤونة؟». وقال في نفسه: طبعا في بيت المؤونة. ليلة صيفية في الغابة، النوافذ في غرفة المؤونة من دون أبواب، من دون زجاج، ويُسمع، طوال الليل، حفيف الغابة فيما هي نائمة...

(*) الفلاح الروسي الذي أنهكته حياته القاسية وجعلته فظا جلفا (المراجع).

عندما دخل تريفون ألقى التحية وانحنى أيضا لميتيا بصمت ومن دون أن ينظر إليه في عينيه. ثم جلس على المقعد أمام الطاولة ووجه حديثه مباشرة بجفاف وغلظة إلى الوكيل: ما الأمر، بأي أمر أتيتنا؟ فبادر يجيب بأن السيدة أوصته أن يطلب من تريفون أن يشرف على المنحلة لأن النحال العامل عندها عجوز غبي شبه أصم، وترى أن تريفون هو النحال الأول، على مستوى المحافظة كلها، ذكاء وفهما. وهنا سحب من جيب سرواله زجاجة الفودكا وقطعة دهن الخنزير ملفوفة بقطعة ورق سميكة بدت عليها بقع الدهن واضحة. التفت إليه تريفون ببرود وبشيء من قلة التقدير، ثم نهض من مكانه وتناول من الرف قدح الشاي. قدّم الوكيل القدح بالفودكا أولا لميتيا، ثم إلى تريفون، وبعده إلى فيدوسيا - التي أتت عليه فورا وبرغبة، وأخيرا صب لنفسه. بعد أن شرب شرع يعيد الكرة ويملأ القدح دورا ثانيا وهو يمضغ فطيرة العجين وينخر...

ثمل تريفون بسرعة، لكنه لم يتخل عن جفافه ونظرته المستهترة، كما أن الوكيل تبلّد بعد القدح الثاني. اتخذ الحديث، ظاهرا، طابعا وديا، لكن عيني كليهما كانتا حذرتين شكاكتين. جلست فيدوسيا تنظر، صامتة وباحترام، لكن دونما سرور أو رضا. أما أليونكا، فلم يكن لها أي حضور. لذا، عندما فقد ميتيا أي أمل في قدومها، وحتى في إمكان همس «كلمة» بأذنها في حال مجيئها، وإذا اعتبر كل ذلك من باب الأحلام الغبية للوكيل، فقد نهض وقال بشكل قاطع إنه حان وقت المغادرة. فأجابه الوكيل بعبوس ووقاحة:

- الآن، الآن، لدينا وقت! عندي كلمة لك أقولها سرا.

- تقولها لي في الطريق - قال له ميتيا بثبات وحسم، ثم أضاف: - هيا نذهب!

لكن الوكيل خبط بيده على الطاولة والتفت إليه ثملا يقول:

- قلت لك إن ذلك مما لا يُقال في الطريق! تعال معي لدقيقة... نهض بتثاقل، فتح الباب المؤدي إلى المدخل، وخرج ميتيا في إثره.

- قل لي... وماذا عندك؟

- اسكت! همس له الوكيل بسرية وأغلق الباب خلفه وهو يترنح قليلا.

- آه، ما الأمر؟

- اسكت!

- أنا لا أفهمك.

- اسكت. هي سوف تأتي! كلمة صدق أقولها لك!

أبعده ميتيا عنه، خرج من المدخل وتوقف على العتبة دون أن يدري ما يفعل الآن: أينتظر قليلا، أم يستقل العربة وحده، أم يتريض ماشيا؟

كانت الغابة الكثيفة الخضراء على مبعدة عشر خطوات من هنا. وهي في هذا الجو المسائي أروع وأكثر طراوة ونظافة. غابت الشمس الصافية المتألقة، وتلألأت بقايا هالة قرصها الذهبي. وبغتة سُمع صوت انداح في عمق الغابة، انبعث، على ما خُيل إليه، من بعيد، من تلك الجهة، خلف المنحدر. كان صوتا أنثويا ناعما، رن مناديا رائعا على نحو لا يحصل إلا في الغابة وفي مثل هذا الغسق المسائي.

- آو! - تردد الصوت بامتداد، وكأنما أغراه الصدى المتماوج في الغابة - آو!

نزل ميتيا عن العتبة، وأسرع، عبر الأزهار والعشب، نحو الغابة. كان الطريق منحدرا يفضي إلى منخفض صخري، تماما، وقفت أليونكا تقضم من كعكة بيدها. قفز ميتيا وتوقف عند نهاية الريف الصخري المطل على الوهدة المنخفضة أمامه. رفعت بصرها نحوه بعينين مندهشتين. فسألها بصوت خفيض:

- ماذا تفعلين هنا؟

- أبحث عن عجلنا والبقرة... ماذا تريد؟

- أتأتين أم لا؟

- هكذا، من دون مقابل، آتيك؟

- ومن قال لك من دون مقابل؟ ثم أضاف بما يشبه الهمس المسموع:

بخصوص ذلك لا تقلقي...

- لكن متى؟

- غدا... متى تستطيعين؟

قالت أليونكا وهي تفكر:

- غدا سأذهب مع أمي لقص صوف الغنم - صمتت للحظة، ثم تلفتت بحذر حولها ونحو الرابية خلفه وتابعت: مساء، مع حلول الظلام، آتيك. لكن أين؟ عند المزبلة لا يجوز، فقد يمر أحد ما... هل تريد الكوخ في عمق حديقتكم؟ لكن احذر، لا تخدعني، لن أُقبل معك مجانا ودون مقابل... أنت هنا، ولست في موسكو... يقال إن المرأة هناك هي التي تدفع...

كانت عودتهما حكاية تحكى. فتريفون لم يبق مدينا - قام بالواجب ووضع زجاجة على الطاولة.

سكر الوكيل إلى درجة أنه لم يقو مباشرة على الجلوس في مكانه من العربة - تعثر في البداية وسقط مما أجفل المهر وكاد يعدو وحيدا. سكت ميتيا ونظر إليه دونما إشفاق، وانتظر ريثما أخذ مكانه تماما. لكز الوكيل المهر، فعدا، في طريق العودة، بسرعة قصوى أيضا. لبث ميتيا صامتا وتمسك جيدا كي يحفظ توازنه في مقعده، وراح يتملى السماء في هذا المساء، ويجيل بصره في الحقول المتراكضة أمام عينيه، ويصغي إلى غناء البلابل التي تكمل آخر أغانيها لهذا اليوم، ويرى، في الشرق، إلى الالتماعات الخفيفة في الأفق البعيد التي لا تعد إلا بطقس صاف جميل. فهم ميتيا كل أبعاد هذه الروعة المسائية، لكنها الآن بعيدة عنه، وهو في شغل عنها لا يشغله سوى أمر واحد: غدا مساء!

في البيت كان خبر ينتظره، وصلت رسالة تؤكد قدوم آنيا وكوستيا غدا في قطار المساء. ارتبك وانزعج في البداية، إذ قد يهرعان، بعيد وصولهما، إلى الحديقة، ويمكن أن يعرجا إلى الكوخ... لكنه تذكر حالا أنهما لن يصلا إلى البيت من المحطة قبل الساعة العاشرة، وبعدها سيتناولان العشاء، ثم يشربان الشاي...

سألته أولغا بتروفينا:

- هل ستذهب لاستقبالهما في المحطة؟

اصفر وجهه، ارتبك، ثم قال:

- لا، لا أظن... ليست لديّ رغبة... وليس لي مكان...

- لكن يمكنك ركوب الحصان...

- لا، لا أعـــرف الآن... وهل من داع إلى لذلك؟ في اللحظة الراهنة، على الأقل، لا أرغب في ذلك...

رمقته أولغا بتروفنا بنظرة وقالت:

- هل أنت في صحة جيدة؟

- تماما، لكنني أشعر بالنعاس وأريد النوم وحسب... - أجاب بخشونة.

وذهب فورا إلى غرفته، استلقى على الديوان في الظلام ونام من دون أن يخلع ثيابه.

في الليل سمع موسيقى هادئة بعيدة، ورأى نفسه معلقا فوق هوة ضخمة عميمة الضياء، تزداد بريقا وضياء وتزدحم بالناس، ثم ينبعث صوت غناء حزين: «كان يا ما كان، عاش في قديم الزمان ملك طيب...» ارتعش وتململ، ثم استدار إلى الجانب الآخر وغفا من جديد.

بدا له النهار طويلا لا نهاية له... خرج ميتيا كالمتخشب لشرب الشاي، لتناول طعام الغداء، ثم عاد، ثانية، إلى غرفته، واستلقى على السرير وتناول من درج طاولته ديوان بيسمسكي(*)، وقرأ دون فهم لما يقرأ، ثم تطلع طويلا في السقف وأصغى إلى حفيف إشجار الحديقة المشمسة خلف النافذة في هذا الصيف الهادئ... نهض، متثاقلا، ودلف نحو المكتبة لتبديل الكتاب... ركن هادئ رائع عريق تطل إحدى نوافذه على شجرة القيقب الأثيرة، ونوافذه الأخرى إلى السماء من جهة الغرب... ذكره ذلك المشهد بهاتيك الأيام الربيعية (التي غدت قصية الآن) عندما كان يجلس لقراءة الأشعار في المجلات القديمة، فتتراءى له كاتيا... استدار وقفل راجعا: «إلى جهنم إلى جهنم كل تراجيديا الحب الشعرية هذه!» - قال في نفسه متضايقا.

تذكر باستياء عزمه على الانتحار ما لم تصله رسالة من كاتيا، ثم استلقى ثانية وعاد إلى بيسمسكي. لكنه، كالسابق، لم يع شيئا، بل نظر إلى الكتاب متفكرا بأليونكا... وهنا انتابته قشعريرة إثر اضطراب زائد في بطنه. وكلما اقترب المساء اشتد اضطرابه وتناهبته القشعريرة. كثر اللغط ودبت حركة نشطة في البيت وفي الفناء، إذ كانوا يعدون العربة من أجل الذهاب إلى المحطة، فتذكر أيام المرض عندما يستلقي الإنسان وحيدا في حين تجري الحياة اليومية حوله غير مبالية به، ثم غريبة عنه، فكريهة بالنسبة إليه. أخيرا تردّد صياح باراشا في مكان ما: «الخيل جاهزة يا سيدتي!»

(*) شاعر روسي من القرن التاسع عشر (المترجم).

وسمع صوت الجلاجل ثم وقع حوافر، فحفيف وقرقعة العربة التي يجرونها عند العتبة لربطها إلى الجياد... همس في نفسه متضايقا: «آه متى ينتهي كل ذلك!». ثم سمع إثر ذلك صوت أولغا بتروفنا تعطي الأوامر الأخيرة للخدم. ومن جديد رنّ صوت الجلاجل، ثم ضجيج العربة وصرير عجلاتها على الطريق إلى أن ابتعدت وتلاشى كل صوت...

نهض مسرعا وولج الصالون. ثمة فراغ وضوء أصفر عكسته أشعة الشمس المائلة إلى المغيب. وكان هناك صمت وفراغ ثقيل في فضاء حجرات وردهات البيت: في غرفة الاستقبال وفي غرفة الجلوس وفي المكتبة التي أطلت من نافذتها زرقة الأفق الجنوبي وخضرة ذؤابات شجرة القيقب التي التمع فوقها كنقطة زهرية اللون نجم العقرب... ثم عرّج إلى جناح الخدم ليتأكد فيما إذا كانت براشا هناك أم لا. وعندما تأكد أن المنزل خال تماما من السكان التقط قبعته من الشماعة ورجع مسرعا إلى غرفته وقفز من نافذتها بساقيه الطويلتين إلى حوض الزهور، حيث لطا برهة قصيرة، ثم خرج إلى الحديقة، وانعطف نحو ممشى جانبي منعزل عرشت على جانبيه بكثافة أذرع وأغصان شجيرات الأكاسيا والليلك.

لم يكن ثمة طلٌّ على الزهر، إذ لم يحن وقته بعد، لذا عبقت عطور الحديقة في المساء. لكن خيل إلى ميتيا، على الرغم من حالة اللاوعي الملازمة لحركاته وأفعاله في هذا المساء، أنه لم يستشعر في حياته - ربما باستثناء مرحلة الطفولة الأولى - مثل هذا الدفق القوي من الروائح المتنوعة المنبعثة الآن. ففاحت كل الروائح الطيبة من أغصان الأكاسيا وأوراق الليلك، وأوراق عنب الثعلب، من الأرقطيون وروائح الزهر والعشب والأرض.

تقدم إلى الأمام بضع خطوات، بينما ألحت عليه فكرة مؤرقة «وماذا لو خدعتني، ولم تأت؟ والآن خيل إليه أن حياته كلها متعلقة بمجيء أليونكا، أو عدم مجيئها. توقف مكانه ثانية والتفت، إذ ميّز، إضافة إلى روائح النباتات، رائحة دخان في المساء منبعث من مكان ما من القرية. وكانت حباحب المساء تسبح ببطء في الفضاء على خلفية هذا الهدوء وفي هذا الغسق، كما أضاءت المكان قليلا التماعات بعض نجوم الصيف المبكرة في جهة من السماء، إضافة إلى نور الهلال حديث الولادة، في كبد السماء، المطل فوق سطح البيت من خلال غصون الأشجار. نظر ميتيا إلى الهلال، فرسم إشارة الصليب، وسار بين الأكاسيا، كانت الطريق تقود إلى الوهدة، وليس إلى الكوخ، لذا كان عليه أن ينعطف إلى اليسار. وهكذا سار ميتيا وسط الشجيرات، بين الأغصان وأذرعها المتطاولة الممتدة، منحنيا تارة ومبعدا إياها عنه تارة أخرى. وبعد دقيقة وصل المكان المنشود.

اندس، خائفا، في الكوخ، في عتمته المشبعة برائحة القش الجاف، وألقى، بعينين مفتوحتين على اتساعهما، نظرة شاملة متفحصة حوله، فتيقن، شبه مسرور، أن لا أحد هنا بعد. لكن اقتربت اللحظة الحاسمة، فوقف إلى جانب الكوخ، مستنفرا كل جوارحه. كان طوال اليوم متوترا، والآن بلغ توتره الذروة. لكن - يا لدهشته - اكتشف الآن أن حالة التوتر هذه إنما اعترته جسدا فقط، ولم تتغلغل في أعماقه. اكتشف ذلك الآن فقط عندما أحس بتسارع دقات قلبه وخفقانه الشديد. ولما كان الهدوء شاملا المكان حوله إلى حد مذهل، فقد سمع ضربات قلبه الواجف فقط..وفجأة سمع، في مكان ما خلفه، خشخشة شيء ما، لكن، بالنسبة إليه الآن، كان ذلك أقوى من قصف الرعد. التفت بحدة ورهافة، وحدّق فيما بين الأشجار باتجاه المتراس، فرأى شيئا ما يتحرك تحت أغصان شجرات التفاح، شيئا ما أسود. ولم يكد يستوعب ما جرى له حتى رأى هذا السواد يندفع نحوه بخطوة واسعة ... وكانت أليونكا.

صدرت عنها تنهيدة، وألقت عن رأسها طرف ثوبها الحريري الأسود، فرأى وجهها منكمشا قليلا تنيره ابتسامة. كانت حافية ترتدي تنورة وقميصا بسيطا مضبوطا تحت التنورة. وتحت القميص برز صدرها الأنثوي الناهد. وكشفت ياقة القميص المفتوحة عن عنقها وجزء من كتفيها، وردنها المشمور حتى المرفقين عن ذراعين عبلتين. وكان كل ما فيها، بدءا من رأسها الصغير الذي نشرت عليه منديلا أصفر، حتى قدميها الأنثويتين الحافيتين، حسنا وأسرا، أضف إلى أنه يراها للمرة الأولى في

حالة اللاتوتر أو الحرج، بكل روعة عفويتها... ندّت عنه تنهيدة عميقة، بينما همست هي بمرح ولصوصية، وهي تدلف إلى عمق الكوخ ملتفتة:

- علينا أن نسرع.. أليس كذلك...؟

وقفت في عمق الكوخ، دس ميتيا يده في جيبه - بينما أسنانه تصطك وساقاه متصلبتان كالحديد - ودس في راحة يدها خمسة روبلات مدعوكة. خبأتها، على الفور، تحت إبطها، وجلست على الأرض. جلس بجانبها وضم إليه رقبتها من دون أن يدري ما يفعل ، أيقبلها أم لا. كانت رائحة منديلها وشعرها، والرائحة البصلية لكل جسدها، المختلطة برائحة العزبة والدخان، كل ذلك كان حسنا يدوّخ الرأس، وقد استوعب ميتيا كل ذلك وأحس به. كانت تضطرم في داخله، دونما شك، رغبة جسدية، لكنها لم تتحرك بعد إلى رغبة عاطفية، إلى إعجاب واشتهاء يستنفر ويستفز كيانه. تنهدت واستلقت على ظهرها. استلقى بجانبها مال إليها، ومد يده.. أمسكت يده وشدتها إلى أسفل، وهي تضحك بعصبية ما وبصوت خفيض، وقالت بين المزح والجد:

- لا، لا يجوز.

أزاحت يده وشدّت عليها بقوة بيدها الصغيرة، بينما عيناها تنظران، عبر فتحة الكوخ المثلثة، إلى أغصان التفاح، إلى السماء الزرقاء الضاربة إلى سواد في العتمة، وإلى النقطة الحمراء لنجم العقرب الساكن في عمقها. عمّ تعبّر هاتان العينان؟ ماذا عليه أن يفعل؟ أيقبلها في رقبتها، في شفتيها؟ فجأة استحثته قائلة، بينما مدّت يدها إلى طرف تنورتها:

- هيا، علينا أن نسرع و...

عندما نهضا - نهض ميتيا يلفه إحساس بالخيبة - غطّت هي رأسها بمنديلها وسوّت شعرها، وسألته هامسة بحيوية، وبلهجة العشيقة، أو الإنسان الذي غدا قريبا حميما:

- قالوا إنك تزور الكنيسة. يُقال إن الخوري يبيع خنازير صغيرة. أصحيح ذلك، أم لا، ألم تسمع بذلك؟

- ٢٨ -

في هذا الأسبوع بدأ هطول المطر غزيرا منذ يوم الأربعاء، وما زال حتى هذا اليوم، السبت يتدفق من الصباح إلى المساء كما من قِربٍ مفتوحة، مع جو كالح مكفهر.

طفق ميتيا يزرع الحديقة جيئة وذهابا دون كلل، ويبكي بمرارة وحرقة طوال اليوم، حتى هو نفسه قد أدهشته غزارة دفق دموعه.

بحثت عنه باراشا ونادت عليه في الفناء وفي ممشى الزيزفون، نادته وقت الغداء ومن أجل شرب الشاي، لكن لا حياة لمن تنادي.

كان الطقس باردا مع رطوبة نافذة وغيوم ثقيلة سوداء، وفي هذا الجو الكابي الملبد بدت الخضرة الكثيفة للحديقة المبللة أكثر خضرة وطراوة وبهاء. وكان هبوب الريح، من حين إلى آخر، يسفح الماء عن الشجر فيتطاير رذاذا في كل الاتجاهات. لكن ميتيا لم ير شيئا من ذلك، ولم يلفت انتباهه أمر. أُشبعت قبعته البيضاء بللا فغدت رمادية داكنة، اسودّت سترته وتلطخ حذاؤه وساقاه حتى الركبتين بالوحل. فغدا منظره - وحبال الماء تنسكب من رأسه وأطراف ثيابه حتى قدميه، إضافة إلى شحوب وجهه وعينيه المقرحتين من البكاء - مرعبا حقا.

دخن لفافة إثر أخرى، ومشى بخطوات واسعة تارة وخوّض في الوحل وبرك الماء تارة أخرى، وعلى العشب الطويل وبين أشجار التفاح والإجاص مصطدما بالأغصان الملتوية والممتدة... جلس على المقاعد المبللة المتسخة، هبط إلى الوهدة المنخفضة في عمق الحديقة، واستلقى في الكوخ على القش الرطب، في المكان نفسه الذي استلقى فيه مع أليونكا. وبسبب البرد

والرطوبة الجليدية للهواء ازرقت يداه الكبيرتان واستحال لون شفتيه إلى ليلكي، كما عكس وجهه الشاحب شحوب الموتى بوجنتيه المتهدلتين ظلا ليلكيا...

استلقى على ظهره واضعا رجلا فوق أخرى، ويداه تحت رأسه محملقا في سقف القش المسود، وقد دلفت منه نقاط ماء كبيرة صدئة اللون... وفجأة نهض، لابل قفز واقفا، والتقط من جيب سرواله رسالة مدعوكة قرأها مائة مرة، كان قد أحضرها إليه أمس في وقت متأخر مساء مسّاح الأرض، الذي قدم بعمل إلى دارتهم لبضعة أيام. ومن جديد شرع يلتهم الرسالة بعينيه:

«عزيزي ميتيا، لا تذكرني بسوء. انس، انس كل ما كان بيننا. أنا سيئة لئيمة فاسدة ولا أستحقك، لكني أحب الفن حتى الجنون! أخيرا قررت السفر، سأسافر، وأظنك تعرف مع من... أنت لمّاح وذكي وستفهمني. أتوسل إليك ألا تعذب نفسك وتعذبني معك! لا تكتب إليّ!، فلا فائدة! كل شيء قد انتهى، انتهى إلى الأبد!»

قبيل المساء انهمر المطر في الحديقة بغزارة أشد مع هزيم رعد مخيف، الأمر الذي اضطره إلى اللجوء إلى البيت. ومبللا من رأسه حتى أخمص قدميه، وأسنانه تصطك من برد جليدي نخره حتى العظم، نظر إلى البيت من خلف الأشجار، وإذ أيقن أن لا أحد يراه عبر الحديقة راكضا حتى شباك غرفته، رفع إطارها النصفي وقفز إلى الداخل، أقفل الباب وارتمى على السرير.

زحف الظلام بسرعة، وكان وقع المطر مسموعا في كل مكان: على السطح، حول البيت وفي الحديقة. وكان وقعه مختلفا من

مكان إلى آخر... فهو في الحديقة شيء، وحول البيت مع قرقعة المزاريب وطبطبة الماء النازل منه إلى البرك شيء آخر. وشكل ذلك لديه، وهو مسمّر على السرير وفي حالة أشبه بالسُبات، إحساسا بخطر ما غير مفهوم. ومع الحرارة التي ينفثها أنفه واستشعرها أثناء زفيره وفي رأسه، فقد أحس بدوار كما لو كان مخدرا، وارتسم أمامه عالم آخر، مساء آخر، كما لو كان في بيت غريب... فتملكه إحساس بالرعب.

أدرك وأحس أنه في بيته، في غرفته المظلمة تقريبا بسبب الجو الماطر والمساء الزاحف، كما تناهت إلى سمعه أصوات أمه وآنيا وكوستيا والمسّاح، لكنه أحس نفسه، أيضا، كمن يمشي في بيت آخر غريب خلف مربية مبتعدة متخلية عنه، فشمله ضيق وكمد غير مفهوم، متزايد ومختلط بتشوق واشتهاء أحس بأنه في جانب منه، منحط وغير سليم. جاء ذلك الإحساس بسبب الطفل ذي الوجه الكبير الأبيض الذي اضطرها، وهي تحمله وتهدهده بين يديها، إلى ثني جذعها إلى الخلف. أسرع ميتيا كي يلحق بها، ثم يسبقها ليراها في وجهها، وليتأكد فيما إذا كانت هذه أليونكا أم لا، لكنه ألفى نفسه، إذ ذاك، في أحد فصول مدرسته الثانوية، وقد أعتم زجاج نوافذها بطبقة سميكة من الطباشير. ولم تستطع تلك الواقفة هناك أمام الكومودينو والمرآة أن تراه، أصبح غير مرئي.

كانت ترتدي تنورة حريرية صفراء قصيرة (من صنف الثياب الداخلية) تشد وركيها المستديرين الملفوفين مع حذاء عالي الكعب وجوربين رقيقين مخرّمين شفافين، وتدرك - على ما يبدو - ما

هي قادمة على فعله. أسرعت وخبأت الطفل في الكومودينو، ردّت خصلة شعرها خلف كتفها وعقصتها، اختلست نظرة نحو الباب، ثم وقفت أمام المرآة ترى إلى وجهها المدهون بالمساحيق، وإلى كتفيها العاريتين. انفرج الباب بغتة وولج الغرفة ملتفتا بحيوية ووقاحة، سيّد يرتدي بدلة سموكينغ بوجه أصفر حليق وشعر أسود قصير مجعد. تناول علبة سجائر ذهبية ملساء وشرع يدخن. رفعت شعرها ونظرت إليه مرتبكة عارفة قصده، ثم ألقت جديلتها على كتفها ورفعت يديها العاريتين... ضم خصرها بذراعه، وطوقت، بدورها، عنقه، فبدت زاوية ما تحت إبطها السوداء... التصقت به ودفنت رأسها في صدره...

وصحا ميتيا مرعوبا يتصبب عرقا مع إحساس صاعق وجلي أنه قد انتهى تماما، وأن هذا العالم قاتم مخيف إلى حد الجنون، بحيث لا يمكن أن يكون ثمة أفظع منه حتى في الآخرة بعد النشور من القبور. كان الظلام شاملا في غرفته، لكن خلف النوافذ هرج ومرج، وكان ذلك مما لم يطقه كيانه الذي ألمت به قشعريرة حادة. والأمر الأرهب من ذلك كان حضوره المقرف مع ذلك السيد الحليق وكأنه شريك له في فعلته. تناهت إلى سمعه أصوات وضحكات من الصالون، ولشد ما ضايقته لامبالاة وقسوة الحياة التي لا ترحمه...

جلس على السرير ونفض الغطاء عنه ونادى «كاتيا! ما هذا الذي يحصل؟»، ثم ناداها مرة ثانية باسمها بصوت مسموع موقنا تماما أنها تسمعه، وأنها، إنما تصمت ولا ترد عليه، لأنها محبطة أيضا مثله، ولأنها تدرك الإثم الذي لا يغتفر الذي اقترفته. وهمس بمرارة ورقة:

«كاتيا، لا بأس يا كاتيا!» راغبا في القول إنه يغفر لها كل شيء فيما وافته من أجل إنقاذهما كليهما معا، إنقاذ حبه الرائع الذي تفتح في العالم الربيعي الأروع، والذي كان أشبه بالجنة. وكرّر هامسا: «آه لا بأس يا كاتيا!» - لكنه أدرك في الحال أن الأمر محال وأن لا عودة إلى تلك الرؤيا البديعة في دارة شوخوفسكي على الشرفة المحاطة بالياسمين التي أبدعها خياله ذات مرة... وبكى بحرقة من ألم ممض في صدره.

كان الألم شديدا لا يُطاق إلى درجة أنه دونما تفكير فيما يفعل ودونما إدراك لما يمكن أن يحصل من جراء كل ذلك، ومتمنيا بحسرة شيئا واحدا فقط: أن يتخلص من هذا الألم، وألا يعود إلى عالم العذاب والمرارة إلى حيث أمضى يومه بطوله، إلى حيث صحا لتوه من أفظع وأقرف حلم في هذه الدنيا... ومدفوعا بثقل كل ذلك تلفّت حوله، سحب درج منضدته وتناول منه ذلك المسدس الثقيل البارد، تنهد بعمق وسرور، فتح فمه وأفرغ فيه، بثبات وتلذّذ، طلقة.

ناتالي



-١-

في ذلك الصيف لبست للمرة الأولى قبعة الطالب الرسمية، وكنت مفعما بتلك السعادة المميزة التي يحسها، في تلك المرحلة، فتى يدرج خطواته الأولى على طريق الحياة الطليقة. فقد نشأت في أسرة من النبلاء تقطن القرية وتتميز بالصرامة في تربية أبنائها، وترعرعت فتى بريئا طاهر الروح والجسد، أحلم بالحب وأتوق إليه، ويحمر وجهي لدى سماع الأحاديث الخليعة لرفاقي في المدرسة الثانوية فيقولون لي ممتعضين:

- خير لك يا مشيرسكي أن تصبح راهبا.

لكن في ذلك الصيف ودعت تلك المرحلة البريئة من عمري، ولم يعد وجهي يتضرج خجلا. ولما عدت إلى البيت لقضاء العطلة قررت أنه قد آن الأوان لأن أغدو كالآخرين، لأدنس طهارتي ولأبحث عن حب غير رومانتيكي. ووفقا لهذا القرار، ورغبة في الظهور بين الناس بقبعتي الطالبية الزرقاء، صرت أقوم بجولات وزيارات بحثا عن علاقات غرامية في القرى المجاورة عند أقاربي ومعارفي. وفي هذا السياق جاءت زياراتي لضيعة خالي تشيركاسوف، الضابط المتقاعد من كتيبة الفرسان، الذي ترمل مبكرا وله ابنة وحيدة هي سونيا.

وصلت متأخرا عن الموعد المحدد، ولم يستقبلني في البيت سوى سونيا. حينما ترجلت من العربة وهرعت إلى المدخل المعتم خرجت لاستقبالي وقد خلعت على جسمها رداء نوم من الفانيلا، رافعة في يدها شمعة، ومدت إلي وجهها كي أطبع قبلة على خدها، ثم قالت بلهجتها الساخرة المعهودة وهي تهز رأسها:

- آه، أيها الشاب المتأخر دوما وفي كل مناسبة!

فأجبتها:

- في هذه المرة لست مذنبا أبدا... القطار تأخر وليس الشاب.

- هس، لا ترفع صوتك، فالكل نيام، لبثوا منتظرين بلهفة طوال المساء، وأخيرا ملوا الانتظار... بابا أوى إلى النوم غاضبا وهو يشتمك ويصفك بالطائش الأرعن، كما شتم «يفريم»، الذي سيبقى منتظرا، على ما يبدو، حتى قدوم قطار الصباح، ووصفه بالأحمق العجوز، وناتالي ذهبت مستاءة، كما انصرف الخادم أيضا. بقيت أنا وحدي صبورة ووفية لك... هيّا اخلع قبعتك وتعال كي نتناول طعام العشاء.

أجبتها وأنا أتملى عينيها الزرقاوين وذراعها المرفوعة العارية حتى الكتف:

- شكرا يا صديقتي العزيزة... يسرني الاقتناع بإخلاصك لي لا سيما الآن وقد أصبحت فتاة رائعة الحسن، ولدي تجاهك نوايا جدية، أي ذراع وجيد... وكم هو مثير هذا الرداء الخفيف الذي، كما يبدو، لا شيء تحته!

ضحكت قائلة:

- لا شيء تقريبا... أنت كبرت وصرت رجلا. نظرتك شيطانية وشارباك سوداوان ينمان عن خبث... ماذا جرى لك؟ فخلال هذين العامين اللذين لم أرك فيهما تحولت من صبي قلق خجول إلى شاب وقح ظريف. وهذا كان يمكن أن يعدنا بالكثير من لذائذ الغرام، كما كانت تقول جداتنا، لولا ناتالي التي ستغرم بها صباح الغد على الفور وإلى الأبد.

- ومن هي ناتالي هذه؟ سألتها وأنا أدلف خلفها إلى غرفة الطعام المضاءة بمصباح ساطع معلق من السقف، والمشرعة النوافذ في هذه الليلة الصيفية الدافئة الساكنة.

- إنها ناتاشا ستانكيفتش صديقتي في المدرسة الثانوية وضيفتي الآن. فتاة جميلة حقا لا تقارن بي. تصورها: رأس صغير جميل، شعر ذهبي اللون، مقلتان سوداوان، ليستا عينين بل «شمسان سوداوان» كما يقول الفرس، رموشها طويلة وسوداء طبعا، محياها ذهبي البشرة، وكذا كتفاها وغير ذلك.

سألتها وقد أعجبني أكثر المنحى الذي اتخذه حديثنا:

- وماذا تعني بـ «غير ذلك»... هذه؟

غدا سنذهب إلى السباحة معا. أنصحك بالاختباء خلف الدغل متلصصا، وعندها سترى... قامة متناسقة البنيان ميساء مثل حورية فتية.

كان على المائدة ضلع لحم بارد، وقطعة جبن، وزجاجة نبيذ أحمر من عنب القرم.

- لا تتضايق، ما عندي شيء آخر أقدمه لك - قالت بينما كانت تأخذ مكانها على الكرسي وتصب النبيذ لي ولها - ولا توجد فودكا. فليمنحنا الرب لنقرع الأقداح، حتى إن كان الشراب نبيذا.

- وماذا، تحديدا، يمنحنا الرب؟

- أن يجمعني بعريس يرضى بالعيش معي في هذه الدار. فقد دخلت عامي الحادي والعشرين، وليس بوسعي الابتعاد عن البيت في حال الزواج، فمع من سيبقى أبي في هذه الحال؟

- ليمنحنا الرب!

بعد أن قرعنا قدحيْنا؛ واحتست القدح كله على مهل، راحت ترنو إليّ بابتسامة ساخرة غريبة، وإلى الطريقة التي استخدم بها الشوكة وغمغمت كأنما تتحدث مع نفسها:

- لا بأس بك، جميل نوعا ما، تشبه الجورجيين... في الماضي كنت نحيلا... شاحب الوجه... الآن تغيرت كثيرا، صرت حلوا، لكن عينيك تتراقصان.

- لأنك تبهرينني بفتنتك. فأنت أيضا تغيرت كثيرا.

نظرت إليها بغبطة وابتهاج. كانت جالسة على الطرف الآخر من المائدة طاوية إحدى رجليها تحتها واضعة إحدى ركبتيها فوق الأخرى تماما، وتميل بجنب واحد نحوي. بدت يدها المتشبعة بالشمس أمامي برّاقة تحت ضوء المصباح، وتألقت عيناها الزرقاوان المشعتان، وتلألأ شعرها الكثيف الكستنائي المحمر المضفور استعدادا للنوم في جديلة كبيرة؛ كما انحسرت ياقة ردائها عن جيد ملفوح بالشمس وكشفت أعالي صدر مكتنز، لاح عليه مثلث مظلل بالسمرة، وبانت على خدها الأيسر شامة نبتت عليها شعيرات سوداء جميلة ملتفة.

- وكيف حال بابا؟

لبثت ترنو إليّ مداعبة، ثم تناولت من جيبها علبة سجائر فضية، وعلبة كبريت فضية أيضا، وبدأت تدخن بحذق ظاهر مسوية وضع فخذها المطوي تحتها.

- أبي، والحمد لله، سبع. ما زال، كسابق عهده، عنيدا قاسيا، يضرب الأرض بعكازه، ينفش عرفه الأشيب ويصبغ سرا شاربيه

وفوديه، ويسترق النظر إلى خريستيا... لكنه بات يهز ويؤرجح رأسه أكثر من السابق، كما لو أنه غير موافق على أي شيء. قالت ذلك ضاحكة وهي تعرض علي سيجارة.

تناولت منها سيجارة، وكان ذلك أول عهدي بالتدخين. صبّت لي ولها قدحا آخر، وقالت وهي تنظر من النافذة المفتوحة إلى ظلام الليل في الخارج:

- أجل الأمور حتى الآن بخير والحمد لله. صيف رائع، وليل ساج، أليس كذلك؟ لكن العنادل كفت عن التغريد. أنا، والحق يقال، مسرورة جدا بك، وقد أرسلت هذا الأبله يفريم إلى المحطة منذ الساعة السادسة، إذ خشيت أن يتأخر عليك. انتظرتك بشوق ولهفة، ثم فرحت إذ تأخرت فتفرقوا جميعا وصار في وسعنا الجلوس وحدنا. لقد خمنت، حتى قبل أن أراك، أنك تغيرت كثيرا، وفي مثل سنك يحصل دوما مثل هذا التغيير. أتدري ... شيء حلو أن يجلس المرء وحيدا في هذا البيت الواسع في مثل هذه الليلة الصيفية، مترقبا قدوم أحد ما إليه بالقطار، ثم ها هو أخيرا يرى العربة قادمة ويسمع رنين جلاجلها وهي تقترب من عتبة الدار.

أخذت يدها الممدودة على الطاولة وضغطت عليها بيدي مع إحساس بجاذبية كل جسدها، بينما كانت تنفث من بين شفتيها بهدوء جذل حلقات الدخان. تركت يدها وقلت بما يشبه المزح:

- أنت تتحدثين عن ناتالي... ولا أي ناتالي في الدنيا يمكن أن تقارن بك... بالمناسبة من تكون هي؟! ومن أين؟!

- إنها من منطقتنا، من فورونيج، من عائلة كريمة الأصل، كانت في وقت ما غنية، ثم أضحت مدقعة. في البيت يتكلمون

بالإنجليزية والفرنسية، لكن ليس لديهم ما يأكلونه... فتاة رائعة، هيفاء، طرية العود، ذكية، لكن غامضة تحار فيها للوهلة الأولى إن كانت ذكية أو غبية... أهلها عائلة «ستانكيفتش» من الجيران القريبين لابن عمك ألكسي مشيرسكي، وتقول ناتالي إنه صار يعرّج عليهم كثيرا ويشكو من حياة العزوبية، لكنه لا يعجبها. هو غني فعلا، لكن الناس سيقولون إنها تزوجته لماله وضحت بنفسها من أجل عائلتها...

قاطعتها قائلا: طيب، لنرجع إلى حديثنا، ناتالي هي ناتالي... ماذا بشأن قصة غرامنا؟

- ناتالي، مع ذلك، لن تفسد غرامنا، ستجن حبا بها، لكن ستتبادل القبل معي. ستبكي على صدري شاكيا قسوتها، وأنا سأواسيك وأدغدغك.

- لكنك تعرفين أني موله بك منذ زمن طويل.

- نعم، كان ذلك وله فتى بريء بابنة خاله، زد على ذلك أنه كان مكتوما، وكنت، في ذلك الحين مضحكا ومملا. سامحك الله على ذلك الغباء، وأنا مستعدة لبدء قصة غرامنا منذ الغد، بصرف النظر عن ناتالي.

أما الآن، فحان وقت النوم. علي أن أستيقظ باكرا لتدبير شؤون المنزل.

نهضت وهي تسوي أطراف ثوبها، ثم تناولت من الدهليز شمعة صغيرة وقادتني إلى حجرتي. عند العتبة، وكان قد تملكني الابتهاج والعجب؛ لأن الحظ في تحقيق آمالي الغرامية يوشك أن يحالفني فجأة في بيت تشيركاسوف، قبلتها بنهم قبلة طويلة

وحصرتها إلى صفق الباب، بينما لبثت هي واجمة مغمضة العينين وقطرات الشمعة الذائبة تسيل إلى الأرض. ولما ابتعدت عني محمرة الوجه أشارت بسبابتها منذرة بصوت خافت:

- عليك بالحذر الآن. حذار أن تتجرأ غدا على تصويب نظراتك الشبقة نحوي أمام الجميع... فلا قدر الله أن يلاحظ أبي شيئا من هذا القبيل. هو شديد الخوف مني، لكنني أخشاه أكثر. كما لا أريد أن تلاحظ ناتالي شيئا البتة. إنني خجولة فعلا، وأرجو ألا تحكم علي من خلال سلوكي معك. ستغدو على الفور، إن لم تنفذ أوامري، كريها إلى نفسي.

خلعت ثيابي، وهويت على السرير، وأنا أحس بدوار في رأسي، لكنني غفوت سريعا واستغرقت في سبات حذر لذيذ إثر إحساس بالسعادة والضنى، ومن دون أن تخامرني أي شكوك بخصوص السعادة العظيمة التي تنتظرني، وأن مزاح سونيا ليس مزاحا على الإطلاق.

فيما بعد تذكرت أكثر من مرة نذير الشؤم الذي حام حولي عندما أشعلت عود الثقاب لأشعل الشمعة إثر دخولي الغرفة، إذ انقض نحوي خفاش ضخم، وكاد يلامس وجهي حتى أني ميزت بوضوح، في ضوء عود الثقاب، جسده المخملي الداكن القبيح، ووجهه المتوحش مع أذنين منتصبتين وأنف أفطس.

عبر من أمامي كشبح الموت عبر النافذة المفتوحة متململا بشكل كريه، ثم اختفى وسط الظلام، لكني نسيته فورا آنذاك.

رأيت ناتالي للمرة الأولى في اليوم التالي صباحا وبشكل خاطف. لمحتها تمر مسرعة من الدهليز إلى غرفة الطعام. التفتت - لم تكن قد سرحت شعرها بعد وترتدي ثوبا خفيفا، شبيه البرتقالي - وخطرت بشعرها الذهبي اللماع وعينيها السوداوين، ثم اختفت، كنت في ذلك الوقت وحدي في غرفة الطعام وفرغت للتو من شرب القهوة، حيث كان الضابط العجوز قد سبقني إلى ذلك وانصرف، حين نهضت عن المائدة التفتت إلى الوراء عرضا فلمحتها.

استيقظت في ذلك الصباح باكرا نوعا ما، بينما كان البيت كله غارقا في الهدوء والسكينة. كانت غرف المنزل كثيرة لدرجة أني ضللت الطريق بينها أحيانا. صحوت من نومي في غرفة منعزلة تطل نوافذها على الجزء الظليل من الحديقة وقد نلت حاجتي من النوم. اغتسلت وانا مرتاح، وارتديت ملابس نظيفة، وأسعدني بوجه خاص قميص الحرير الأحمر الجديد، سرحت شعري الأسود الرطب الذي قصصته البارحة في فورونيج، ثم دلفت إلى الرواق وانعطفت إلى الجهة الأخرى لأجد نفسي وجها لوجه أمام مكتب وغرفة نوم الضابط العجوز.

كنت قد عرفت أنه اعتاد الاستيقاظ في الساعة الخامسة، لذا طرقت الباب، ولما لم ألق جوابا فتحته. نظرت إلى الداخل، وسرعان ما تأكدت فرحا أن لا شيء قد تغير في هذه الحجرة القديمة الرحبة، ذات النافذة الإيطالية بأجزائها الثلاثة المطلة على شجرة حور فضية عمرها مائة عام: إلى اليسار كانت تغطي

الجدار بكامله خزانات الكتب، وفي موضع معين بينها برزت ساعة من الخشب الأحمر ذات بندول نحاسي ساكن، وفي موضع آخر كان ثمة مجموعة من الغلايين زينت أذرعها بنمنمات، علق فوقها بارومتر. وفي موضع ثالث برز مكتب من خشب الجوز القديم من عهد الاجداد، ذو غطاء مفتوح أضحى قماش بطانته الأخضر أصهب حائل اللون وتوزعت عليه عدة أشياء: كلابة، مطارق، مسامير، منظار.. وعلى الجدار قريبا من الباب، وفوق أريكة خشبية ضخمة، بدا معرض كامل من لوحات البورتريه حائلة الألوان في أطر بيضاوية الشكل، إضافة إلى منضدة كتابة وكنبة وثيرة تحت النافذة، وكلتاهما ضخمة أيضا، وإلى اليمين برزت على كامل الجدار لوحة كبيرة معلقة فوق سرير عريض مصنوع من خشب البلوط: خلفية لماعة مسودة مع ظلال سحب رمادية داكنة وأشجار شاعرية خضراء ضاربة إلى الزرقة، وفي مقدمة اللوحة تألقت حسناء عارية ممتلئة بيضاء كزلال بيض متجمد، وبالحجم الطبيعي تقريبا. بدت للناظر وقد استدارت قليلا جانبا مرفوعة الرأس، مع التفاتة تنم عن خيلاء واعتداد بالنفس، وبكل ظهرها الممتلئ الثقيل وعجزها البارز وبطتي ساقيها العبلتين الضخمتين، وبينما كنت أتأمل كل ذلك سمعت خلفي الصوت الجهوري للضابط العجوز وهو يعرج نحوي متكئا على عكازه آتيا من جهة المدخل:

- لا، يا صاحبي، في مثل هذا الوقت لن تجدني في حجرة النوم، فأمثالكم فقط يبقون طريحي الفراش حتى البلوطات الثلاث.

- أي بلوطات يا خالي؟

- هذا مما يتردد على ألسنة الفلاحين - أجاب وهو يرمقني بعينيه الصفراوين النفاذتين... والذكيتين هازا عرفه الأشيب... - فيقول الفلاحون عندنا: ها قد بلغت الشمس علو ثلاث بلوطات وما زلت راقدا تدس وجهك في المخدة. هيا نشرب القهوة.

- «عجوز رائع، وبيت رائع»، قلت في نفسي وأنا أتبعه إلى غرفة الطعام التي تراءت من نوافذها المفتوحة خضرة الحديقة في الصباح وكل حسن وبهاء هذه الدارة الريفية في الصيف. كانت تقوم على الخدمة في المطبخ مربية كبيرة السن، صغيرة الحجم، محدودبة الظهر. تناول الضابط العجوز الشاي الثقيل بالقشدة من قدح زجاجي سميك ذي حمالة فضية، ماسكا القدح بيده والملعقة الذهبية العتيقة فيه بإصبعه. أما أنا فتناولت شرائح الخبز الأسود مدهونة بالزبدة، ولبثت أصب القهوة لنفسي من إبريق فضي. كان خالي يهتم بشؤونه فقط، ولم يستفسر مني عن شيء، بيد أنه استرسل وأفاض هذه المرة في شتم جيرانه من الإقطاعيين والسخرية منهم. تظاهرت بالإصغاء لحديثه، بينما رحت أنظر إلى شاربيه وسالفتيه الطويلتين والشعيرات الكبيرة النامية على أرنبة أنفه، مترقبا بلهفة مجيء ناتالي وسونيا مما جعلني دائم الالتفات والحركة في مكاني: ما هذه الناتالي؟! كيف سيكون لقائي بسونيا بعدما جرى في أمسية البارحة؟ شعرت بالغبطة والامتنان منها، ودارت في مخيلتي خواطر فاجرة تتصل بغرفة نومها، وتخيلها في مثل هذا الصباح وهي في وضع فوضوي منفوش عقب الاستيقاظ... هل أسرت سونيا لناتالي بشيء ما عن

غرامنا الذي بدأ أمس؟! لو حصل ذلك فإنني سأحس بشيء ما من الحب تجاه ناتالي، ليس لأنها جميلة فقط، بل لأنها صارت شريكا سريا لنا - لي ولسونيا - ألا يمكن أن يقع المرء في حب اثنتين؟! ستدخلان إلى هذه الغرفة بعد قليل وهما في ذروة نضارتهما الصباحية، وستريانني بسحنتي الجورجية الجذابة وقميصي الحريري الزاهي، ثم تبدآن الحديث والضحك وتجلسان معنا إلى المائدة وتصبان القهوة من هذا الإبريق الساخن، وثمة اندفاعات الشباب، بريق العيون التي نالت كفايتها من النوم، المساحيق على خدود بدت أكثر شبابا بعد النوم، وضحكات فاتنة تنطلق إثر كل كلمة وإن تكن غير طبيعية... وقبل تناول الفطور ستمضيان إلى النهر عبر الحديقة، ستخلعان ملابسهما في المكان، ستبرز زرقة السماء جسديهما العاريين من عل، ولألاء المياه الصافية من تحت... كان خيالي خصبا جموحا، فرحت أتصور سونيا وناتالي واقفتين على سلم القفز قبل السقوط في النهر، ماسكتين بالعارضة، ثم نازلتين بتهيب درجاته السفلية الباردة الملاصقة للماء والزلقة بسبب الطبقة الخضراء الكريهة التي تتخللها، كما رحت أتخيل سونيا وهي تنتر رأسها الكثيف الشعر إلى الوراء، وتندفع بعزم وتصميم ضاربة صفحة الماء بنهديها النافرين، وأخيرا ها هي بجسدها الطباشيري الضارب إلى الزرقة تعوم فاردة ذراعيها وساقيها بحركات كما الضفدعة.

- حسنا، نلتقي ثانية عند الغداء. أنت تعرف طبعا أن الغداء عندنا في الساعة الثانية عشرة، قال الضابط العجوز ذلك مع هزة عصبية معتادة من رأسه، ونهض بذقنه الحليق وشاربيه

الأصهبين المتصلين بسالفتين من اللون نفسه، وقامته المديدة المتصلبة نوعا ما بحكم السن، وهو يرتدي بزة فضفاضة وينتعل حذاء عريض البوز، ويقبض بيده المنقطة ببقع بنية على عكازه، وربت على كتفي، ثم خرج بخطوات سريعة. ما أن نهضت أنا أيضا كي أخرج، عبر الغرفة المجاورة، إلى الشرفة حتى لمحتها مارقة، ثم اختفت. اعتراني، إثر ذلك مباشرة، إحساس بالذهول مختلط بنشوة ما. دلفت إلى الشرفة وأنا أقول لنفسي:

- جميلة حقا!

وقفت، ثمة، فترة طويلة أستجمع أفكاري، لبثت بلهفة أنتظر دخولهما إلى غرفة الطعام، لكن عندما سمعت حديثهما هناك من مكاني على الشرفة، نزلت مسرعا إلى الحديقة، استبد بي هلع ما، إما حيال كلتيهما - كان بيني وبين إحداهن سر آسر - وإما حيال ناتالي بقدر أكبر، التي صعقتني لدرجة العمى قبل حوالى نصف ساعة عندما مرت بخفة من أمامي. تمشيت في الحديقة الكائنة هي وكل هذه الدارة وملحقاتها في منخفض النهر. أخيرا جالدت نفسي ودخلت إليهما متصنعا الهدوء والبساطة، وصرت وجها لوجه أمام سونيا الجريئة المرحة، وناتالي المزوح الظريفة التي التفتت إلي مباشرة، ورمقتني مبتسمة بنظرة من عينيها السوداوين الكحيلتين اللتين بدتا براقتين على نحو عجيب، لا سيما على خلفية شعرها الذهبي:

- التقينا قبلا!

وقفنا على الشرفة متكئين بالمرافق على الحاجز الحجري متلذذين بحرارة شمس الصيف الصباحية على رؤوسنا

الحاسرة... وقفت ناتالي إلى جانبي ووقفت سونيا محتضنة إياها، متطلعة في الأفق إلى مكان ما، شاردة الفكر وهي تدندن أغنية: «وسط ضجيج الحفلة الراقصة صدف أن...». فجأة عدلت قامتها، وقالت:

- هيا بنا إلى النهر! نحن أولا، وأنت بعدنا!

هرعت ناتالي لإحضار البرانس، أما سونيا فتلكأت قليلا لتهمس لي:

- يجب أن تتظاهر، ومنذ الآن، أنك وقعت في غرامها، حذار أن تتصور أن لا حاجة بعد للتظاهر بذلك.

وكدت أن أجيبها بجرأة واغتباط أن نعم.. لم تعد من حاجة للتظاهر، أما هي فأضافت بهمس مختلسة النظر نحو الباب:

- سآتيك بعد الغداء

حين عادتا ذهبت أنا للاستحمام، سرت أولا عبر درب تقوم على جانبيه أشجار البتولا، ثم بين أشجار هرمة شتى على ضفة النهر، حيث فاحت رائحة ماء النهر، وصاحت طيور الرخم على قمم الأشجار. سرت وقد استولى علي شعوران متناقضان تماما إزاء ناتالي وسونيا، وفي أنني سأستحم في الماء ذاته الذي استحمتا فيه للتو.

بعد الغداء، وفي غمرة تلك الأجواء السعيدة الطليقة الهادئة الخالية من أي هموم، وفي ظل النعيم الذي يتراءى في الحديقة عبر النوافذ المفتوحة من سماء وخضرة وشمس؛ بعد غداء طويل تناولت فيه حساء الأكروشكا والفروج المشوي وتوت العليق مع القشدة، لبثت خلاله أسير المشاعر المتصلة بحضور ناتالي

وبترقب تلك الساعة حين يخيم على المنزل كله هدوء وسكون؛ بعد الغداء وسونيا (التي أتت لتناول طعام الغداء وقد شكلت في شعرها وردة مخملية قانية الحمرة) ستتسلل إلى غرفتي كي نواصل قصة غرام الأمس، لكن دونما عجلة. إثر ذلك كله هرعت إلى غرفتي، أسدلت الستائر ورحت أنتظرها مستلقيا على أريكة تركية، مصغيا إلى سكون الدارة القائظ وتغريد الطيور في قيلولة بعد الظهر في الحديقة، التي يهب منها نسيم منعش مفعم بعبير وشذا الأزهار والعشب، بينما تراودني هواجس محيرة: كيف سأحيا في ظل هذه الازدواجية؟ مواعيد غرامية سرية مع سونيا، وإلى جانب ناتالي، التي يفعمني مجرد التفكير فيها بنشوة وهيام عذري خالص، والتي ما برحت صورة قدها المياس ومرفقيها الأنثويين - اللذين استندت بهما على الحاجز الحجري العتيق الساخن بفعل حرارة الشمس - تثير فيَّ كوامن الغبطة والبهجة والإعجاب. من جهة ها هي صورة سونيا مطوقة كتفي ناتالي وقد بدت بردائها المنزلي الخفيف الشفاف أشبه بامرأة شابة متزوجة حديثا. أما ناتالي فكانت ترتدي تنورة قطنية لصيقة وقميصا مطرزا تراءى خلفهما كل قوامها الفتي المتناسق البنيان، لكنــي لا أتجرأ حتى في خيالي على تقبيلها، مثارا بتلك الأحاسيس حينما قبلت سونيا. فقد نظرت إليها ودارت في خلدي هواجس: «ماذا كنت سأحس لو لمستها بشفتي! لما أدركت نظراتي التفتت نحوي فخلبني بريق عينيها السوداوين ورأسها الجميل المطوق بضفيرة ملفوفة دائرية عليه، فخفضت بصري الذي وقع، دونما قصد، على ساقيها عبر حاشية التنورة

التي تخترقها أشعة الشمس، وعلى رسغيها الرقيقين المتينين الأصيلين في الجوربين الشفافين».

في غمرة هذه الهواجس، والأحاسيس فتحت سونيا الباب، وأغلقته خلفها. هتفت، والوردة مشكولة في شعرها، بصوت خافت:

- ما هذا، هل نمت؟ فانتفضت:

- ما بك، ما بك، وهل بوسعي النوم؟!.

أمسكت بيديها فقالت:

أغلق الباب بالمفتاح!... هرعت إلى الباب وجلست هي على الأريكة مسبلة العينين ونادتني - هيا، تعال إلي...

وعلى الفور غرقنا معا وفقدنا كل شعور بالحياء والعقل. خلال تلك الدقائق لم تبدر عنا حتى كلمة واحدة... استسلمت وسمحت لي بتقبيلها في كل مكان من جسدها الدافئ - بتقبيلها فقط - أغمضت عينيها وتضرج وجهها حمرة بقدر أكبر... ومرة أخرى أنذرتني بهمس وهي تبتعد عني لتسوي شعرها:

- بخصوص ناتالي أكرر وأؤكد...! الويل لك إن تجاوزت حد التظاهر بالحب. فأنا لست وديعة رحيمة كما قد يتراءى لك.

كانت الوردة ملقاة على الأرض، فخبأتها في درج الطاولة، وبحلول المساء صار لونها الأحمر القاني بنفسجيا ذاويا.

-٣-

سارت حياتي، ظاهريا، على نحو اعتيادي، لكني لم أعرف، حقيقة وفي قرارة نفسي، لحظة سكينة وطمأنينة. تعلقت أكثر فأكثر بسونيا وصرت أسير اللقاءات الغرامية الشبقة المضنية معها في الليالي - صارت تأتي إلي الآن في وقت متأخر ليلا بعد أن تطمئن إلى أن البيت كله نائم - بينما كنت ألاحق خلسة ناتالي بتوتر وعذاب متزايدين، وكل حركة من حركاتها. سارت حياتنا اليومية وفق نظام صيفي معتاد: لقاءات الصباح، سباحة قبل الغداء، تناول الغداء، قيلولة، ثم تنزه في الحديقة - قد تنشغلان، سونيا وناتالي، ببعض أعمال الخياطة اليدوية والتطريز جالستين في درب البتولا الظليل، بينما أنهمك بطلب منهن، في قراءة رواية الكاتب غونتشاروف بصوت عال، أو تقومان بصنع المربى في الفسحة الظليلة تحت أشجار البلوط قرب البيت على يمين الشرفة، وفي حوالى الساعة الخامسة نشرب الشاي في فسحة أخرى مقابلة وارفة الظلال. في المساء، نتنزه، أو نلعب الكريكيت، أنا وناتالي ضد سونيا، أو سونيا وناتالي ضدي، وبعد حلول الظلام نتناول العشاء في غرفة الطعام... بعد العشاء مباشرة يمضي الضابط العجوز إلى النوم، ونبقى نحن في الشرفة المعتمة، أتبادل مع سونيا المزاح وندخن، بينما تبقى ناتالي صامتة معظم الوقت. أخيرا تقول سونيا: «إلى النوم!»... فأتمنى لهما ليلة هانئة وأنصرف. في غرفتي كنت أنتظر بلهفة بارد اليدين تلك الساعة، آن يتسربل البيت كله بالظلمة والسكينة، بحيث تتناهى إلى سمعي تكتكات ساعة الجيب القابعة على المنضدة الصغيرة قرب رأسي

تحت الشمعة، بينما أشرد للحظات فزعا متفكرا: «لِمَ عاقبني الرب بأن وهبني دفعة واحدة حبيبتين متباينتين: فأولعت مع عذاب وضنى بناتالي الفاتنة، وأدمنت على اللذة الجسدية مع سونيا؟» صرت أشعر أحيانا بأننا لم نعد نقوى على تحمل هذا الوصال المنقوص، لكنني كنت، في الوقت ذاته، أتململ طوال النهار شوقا ولهفة إلى لقاءاتنا الليلية. وكان يجري كل ذلك وناتالي قريبة! كما بدأت سونيا تزداد غيرة وتهددني أحيانا في خلواتنا:

– أخشى أننا نتجاوز بحضور ناتالي حدود البساطة المفترضة. أظن أن بابا قد بدأ يلاحظ شيئا ما، وناتالي أيضا، أما المربية فواثقة تماما من وجود غرام بيننا، ولا أستبعد أن تهمس بشيء من هذا القبيل في أذن بابا. لذا خذ وقتا أطول في الجلوس مع ناتالي في الحديقة، واقرأ لها في تلك الرواية المملة «الهاوية»، وتنزه معها أحيانا في الأمسيات... ياللفظاعة كيف أراك أحيانا تلتهمها بنظراتك الحمقاء... وفي أحيان أخرى أحس بكره تجاهك لدرجة أصبح فيها على استعداد لأن أتصرف كما الفلاحة أوداركا، فأنشب أظافري في فروة رأسك على مرأى من الجميع... فما العمل؟

لعل أفظع شيء أن ناتالي، كما بدا لي، قد بدأت تتضايق، لا بل وتغتاظ من الإحساس بوجود علاقة خفية بيني وبين سونيا. هي من دون ذلك إمرأة صموت، وغدت أكثر صمتا. صارت تنهمك أكثر، سواء في لعبة الكريكيت، أو في شغل الإبرة، دون الاهتمام بمّا يجري حولها. بدا كما لو أننا قد اعتدنا أحدنا على الآخر، تآلفنا مع الوضع القائم، لذا رغبت بتغيير الموقف، فقلت لها ذات

مرة مازحا بينما كنا جالسين لوحدنا في غرفة الاستقبال، وهي تقلب صفحات النوتات شبه مستلقية على الأريكة:

- سمعت يا ناتالي أننا قد نصبح أقارب.

فالتفتت إليّ بحدة ظاهرة:

- كيف ذلك...؟!

- ابن عمي ألكسي مشيرسكي.

قاطعتني دون أن تسمح لي بإكمال عبارتي:

- آه مفهوم! أرجو المعذرة، تقصد ابن عمك ذاك البدين ذا الشعر الأسود الكثيف الملمع، والضخم الألثغ، ذا الفم الأحمر الذي يعلوه البصاق... من أين لك الحق في طرق مثل هذه الأحاديث معي؟!

فزعت من رد فعلها غير المتوقع فقلت وأنا أمسك يدها:

- ناتالي، ناتالي، لِمَ أنت قاسية معي هكذا؟ حتى المزاح ممنوع! سامحيني أرجوك!.

- أنا لا أفهمك... ولا أعرفك حتى الآن... كفى حول هذا الأمر.

نهضت كي أتجنب النظر إلى حذائها الرياضي الأبيض المكرب، وكانت قد رفعت قدميها على الأريكة بشكل مائل، وخرجت إلى الشرفة. برزت خلف الحديقة سحابة، سكن الهواء وازداد اللغط الصيفي الخفيف وهبت ريح سهبية واعدة بالمطر، وبغتة أحسست بسعادة حلوة طليقة، لا سبب لها، مما جعلني أهتف:

- ناتالي، أرجوك لحظة!.

دنت من الباب.

- ماذا؟!

- خذي نفسا عميقا، ما هذا الهواء المنعش؟ ما أحلى الحياة!

لاذت بالصمت هامسة:

- نعم.

- ناتالي، كم تبدين غير لطيفة معي!.. هل أنت متضايقة مني؟!

هزت كتفيها بكبرياء قائلة:

- لماذا أزعل منك؟.

في المساء استرخينا على المقاعد المجدولة من الأغصان على الشرفة وسط العتمة والتزم ثلاثتنا الصمت. ومضت النجوم هنا وهناك بين الغيوم الداكنة، وهبت أنسام خفيفة فاترة من جهة النهر، من حيث تناهى إلينا نقيق ضفادع نعسة. قالت سونيا وهي تغالب تثاؤبها:

- هبط النعاس علي لأن المطر وشيك الهطول. قالت المربية إن الهلال قد طلع و«سيغتسل» بعد أسبوع تقريبا. ثم أضافت بعد لأي: «ناتالي، ما رأيك بالحب الأول؟».

ردت ناتالي من الظلمة:

- لدي قناعة بأمر واحد هو أن هناك اختلافا كبيرا بين الشاب والفتاة في هذا الخصوص.

قالت سونيا متفكرة:

- الفتيات يختلفن أيضا.

ونهضت بحزم قائلة:

- لا، هيا إلى النوم، إلى النوم!

فاستدركت ناتالي:

- سأغفو هنا قليلا، جو الليل يعجبني.

همستُ بينما كان وقع خطوات سونيا يبتعد عنا:

- كان حديثنا غير لطيف اليوم!

فأجابت:

- نعم، نعم... لم يكن حديثنا لطيفا.

في اليوم التالي التقينا، وبدا كل شيء على ما يرام. كان قد هطل مطر خفيف في الليل، لكن عند الضحى صحا الطقس، وبعد الظهر غدا جافا وقائظا. قبيل موعد تناول الشاي في الساعة الخامسة، حينما لبثت سونيا جالسة في مكتب الضابط العجوز لإجراء بعض الحسابات المتصلة بالشؤون المنزلية، جلست أنا وناتالي تحت أشجار البتولا، وحاولنا مواصلة قراءة رواية «الهاوية» بصوت عال. انهمكت هي مطرقة في حياكة شيء ما، ويدها اليمنى تتحرك برشاقة أمامي، بينما طفقت أقرأ وأختلس النظر أحيانا إلى يدها اليسرى الطالعة من الردن، وإلى الشعيرات الصهباء النامية عند أعلى المعصم، وإلى مثيلاتها تلك النامية على القذال عند ملتقى الرقبة بالكتفين. تابعت القراءة بسرعة دون أن أفقه كلمة مما أقول. أخيرا قلت:

- الآن.. جاء دورك في القراءة.

رفعت رأسها، ولاح تحت البلوزة الرقيقة نتوءان يرسمان حلمتي ثدييها، وضعت ما كانت منهمكة في حياكته جانبا، ثم انحنت مرة أخرى فبان قذالها وبداية كتفيها واضعة الكتاب في حضنها، ومضت تقرأ بصوت عجول غير واثق. نظرت إلى يديها وركبتها

تحت الكتاب، يمضني حبها وترجيع صوتها. زقزقت العصافير وهي تتنقل من فنن إلى آخر في الحديقة قبيل سدول الظلام، وتعلق قبالتنا نقار خشب رمادي اللون، ملتصقا بجذع صنوبرة تنمو وحيدة، وسط أشجار البتولا.

- ناتالي، يا لجمال لون شعرك! الضفيرة أغمق لونا، تبدو أشبه بكوز ذرة ناضج.

واصلت القراءة.

- ناتالي، نقار خشب، انظري!

رفعت رأسها إلى الأعلى:

- نعم، نعم، رأيته من قبل ، ورأيته اليوم وأمس... لا تلهني عن القراءة.

- تطلعي، كم يشبه هذا المنظر ديدانا رمادية متيبسة.

- ماذا، أين؟

أشرت إلى مكان بيننا... إلى ذرق طيور متكلس جاف:

- أليس صحيحا؟!

وأمسكت يدها، وتمتمت مبتسما بسعادة وأنا أضغط عليها:

- ناتالي، ناتالي!

رنت إلي طويلا، وبهدوء، ثم نطقت:

- لكنك تحب سونيا!

احمر وجهي كمحتال ضبط متلبسا بالجرم، لكن أنكرت بحماسة أي علاقة من هذا القبيل مع سونيا، حتى أن شفتيها انفرجتا قليلا من الدهشة:

- هل ما قلته غير صحيح؟

- غير صحيح، غير صحيح! أنا أحبها كثيرا، لكن كأخت، فنحن نعرف بعضنا بعضا منذ الطفولة.

في اليوم التالي لم تخرج من غرفتها صباحا، ولا في موعد الغداء، وهذا الأمر دعا الضابط العجوز للسؤال:

- سونيا، ماذا حدث لناتالي؟

ردت سونيا مع ابتسامة خبيثة:

- ترقد منذ الصباح في قميص نومها، لم تمشط شعرها، ويبدو على وجهها أثر البكاء، وحين قدّموا لها القهوة لم تشرب إلا قليلا منها.

هز الضابط العجوز رأسه بعصبية معتادة، وأردف كمن أدرك السر:

- مفهوم... أمر عادي.

لم تخرج ناتالي إلا في موعد تقديم الشاي مساء، لكنها دلفت إلى الشرفة خفيفة نشطة، وابتسمت لي بلطف كأنها مذنبة وتبغي مصالحتي. دهشت من حيويتها وابتسامتها اللطيفة ومن التبرج البادي عليها: فقد قمطت شعرها مشدودا وبدت الغرة جَعِدَة قليلا متموجة، وكانت ترتدي فستانا أخضر بسيطا وأنيقا لا سيما عند الخصر، وتنتعل حذاء أسود بكعب عال. أحسست إزاء ذلك كله بنشوة داخلية جديدة... كنت أطالع على الشرفة مجلة «الأنباء التاريخية» التي أعطاني الضابط العجوز بضعة أعداد منها حين دخلت بغتة بهذه الحيوية والأريحية المشوبة بارتباك ما:

- مساء الخير... هيا نشرب الشاي. أنا مسؤولة اليوم عن السماور، لأن سونيا مريضة.

- ما هذا؟ تارة أنت، وتارة هي؟

- عانيت وجع الرأس صباحا، والآن لبست ثيابي وتهندمت.
- ما أروع هذا الفستان الأخضر لا سيما مع الشعر وهاتين العينين! وأردفت قائلا وكان قد احمر وجهها - هل صدقتني البارحة؟

اصطبغ وجهها أكثر بحمرة وردية لطيفة وأشاحت بوجهها عني قائلة:

- ليس على الفور وليس تماما. أدركت فيما بعد أني لا أمتلك الحق في عدم تصديقك... فما علاقتي، حقيقة، بالمشاعر التي تربطك بسونيا؟ هيا نذهب.

عند العشاء خرجت سونيا من غرفتها أيضا. وانتهزت لحظة مناسبة لتقول لي:

- لقد مرضت.. تأتيني دوما صعبة ومؤلمة بالمقارنة مع الأخريات. أبقى طريحة الفراش حوالى خمسة أيام.. اليوم ما زال بوسعي الخروج، لكن غدا لن أقوى على ذلك.. كن عاقلا في غيابي.. أحبك جدا.. وأغار عليك جدا.
- وهل يعقل ألا تعرجي علي الليلة؟
- أنت غبي.

كان ذلك بالنسبة إلي مدعاة سرور وكرب في آن معا: خمسة أيام من الحرية التامة مع ناتالي، وخمسة أيام دون وصال سونيا ليلا!

قامت ناتالي، على مدى أسبوع، على تدبير شؤون المنزل، وإدارته مرتدية الثوب الأبيض، ذاهبة غادية بين الفناء وجناح الخدم، موجهة الأوامر إلى الجميع. لم يصدف أن رأيتها تقوم بدور ربة منزل حاذقة، وبدا أن الاضطلاع بمثل هذه المهمة كان مدعاة سرور كبير لها، وأنه بمثابة فاصل راحة من متابعة أحاديثنا

- أنا وسونيا - واختلاسنا النظرات. طوال تلك الأيام بدت قلقة أثناء الغداء فيما إذا كان كل شيء على ما يرام، ثم مرتاحة مطمئنة لأن كل شيء سار وانتهى على ما يرام، وأن الطباخ العجوز والوصيفة الأوكرانية خريستيا يقدمان الطعام في الوقت المناسب دون إزعاج الضابط العجوز. بعد الغداء كانت تعود إلى غرفة سونيا، التي لا يسمح لي بالدخول إليها، وتلبث هناك حتى موعد تقديم الشاي مساء، ثم تعود ثانية بعد العشاء لتقضي المساء كله عندها. بدا جليا أنها تتجنب أن نتلاقى على انفراد، بينما صرت أتضايق وأعاني السأم والوحدة. لماذا أصبحت لطيفة معي، وتتجنبني في آن معا؟! أتخاف من سونيا، أم من نفسها ومشاعرها تجاهي؟ رغبت كثيرا وبلهفة في الاعتقاد بأنها تخاف من نفسها، ويدغدغني حلم أثير: ارتباطي بسونيا ليس أبديا، وأنا عندها ضيف إلى حين وينقضي، وكذلك ناتالي. لا بد من الرحيل بعد أسبوع أو أسبوعين على أبعد تقدير، وعندها ستنتهي عذاباتي... سأجد ذريعة لزيارة عائلة ستانكيفتش والتعرف عليها حالما تعود ناتالي إلي البيت... لا شك في أنه سيكون من المؤلم جدا الرحيل عن سونيا، وبالخداع أيضا، بغية تحقيق حلمي المكتوم بناتالي وكسب حبها وطلب يدها، فهل أتبادل القبلات مع سونيا إرضاء لنزوة عابرة ودون حب؟ لكن ما العمل، فعاجلا أو آجلا سيحدث ذلك... لبثت أفكر في هذا الأمر المربك طوال الوقت مضطربا قلقا، وفي انتظار حدوث شيء ما سعيت كي يبقى سلوكي لدى لقاء ناتالي متحفظا أو أكثر لطفا قدر المستطاع ... فالصبر الصبر عسى أن يحل الزمن هذه العقدة. ألمَّ بي، خلال

ذلك، ضجر وشوق... وكما لو حدث ذلك عن قصد ومناكدة، فقد هطل المطر بغزارة، نحو ثلاثة أيام متتالية وراحت حباله تطرق السقف كأخطبوط بآلاف البراثن، غدا البيت معتما كالحا ورقد الذباب على السقف وعلى المصباح في غرفة الطعام. صبرت على مضض وترددت، بين حين وآخر إلى مكتب الضابط العجوز أستمع إليه يروي أحاديث شتى.

بدأت سونيا تطل من غرفتها مرتدية روب النوم لساعة أو لساعتين في البداية مع ابتسامة فاترة، كأنما معتذرة عن ضعفها، فتستلقي في المقعد على الشرفة ولشد ما أثار هلعي حديثها معي الذي اتخذ في هذه الآونة طابع النزق تارة واللطف الزائد تارة أخرى من دون خجل من حضور ناتالي:

- اجلس إلى جانبي يا فيتيك(*)، أشعر بألم وحزن، حدثني شيئا ما مسليا مضحكا... الهلال قد «اغتسل» على ما يبدو وكف عن الاغتسال. تحسن الطقس وفاح شذا الأزاهير اللذيذ.

أجبتها منزعجا في قرارة نفسي:

- بما أن الزهور فواحة بقوة، فهذا يعني أنه سيغتسل من جديد.

ضربت على يدي:

- لا تعارض فتاة مريضة!

أخيرا أخذت تخرج لتشاركنا الغداء وشاي المساء، لكنها ما برحت شاحبة، وكانت تعطي الأوامر بتخصيص كنبة وثيرة لجلوسها، إلا أنها لم تشاركنا العشاء ولا الجلوس في الشرفة

(*) صيغة التصغير والتحبب من اسم فيتالي.

بعده... وذات مرة قالت لي ناتالي - وكانت سونيا قد أوت إلى غرفة نومها وأمرت هي خريستيا بحمل السماور إلى المطبخ:

- سونيا غاضبة مني لأني أجلس قربها طوال الوقت وأتركك وحيدا. هي لم تتعاف بعد، وأنت تحس بوحشة من دونها.

- أحس بالوحشة بدونك أنت فقط.

تغيرت ملامحها، لكنها غالبت نفسها وابتسمت:

- لكننا اتفقنا على ألا نتخاصم أكثر... الأفضل أن تستمع إلى ما أقوله لك الآن: طال مكوثك في البيت ومللت، اذهب للتنزه حتى موعد العشاء، بعد ذلك سأجلس معك مساء في الحديقة. لم تتحقق التنبؤات بخصوص الهلال، وستكون الليلة رائعة إن شاء الله.

- سونيا تشفق علي، وأنت! لا تشفقين علي البتة!

- أشفق عليك كثيرا - أجابت وضحكت بارتباك وهي تضع أواني الشاي على الصينية - لكن الحمد لله أن سونيا تماثلت للشفاء ولن تستوحش بعد الآن.

لدى قولها: «سأجلس معك مساء في الحديقة»... خفق قلبي بلذة وهيام، لكنني استدركت مفكرا «لا، كلمة ملاطفة ليس أكثر؟!» إثر ذلك ذهبت إلى غرفتي، ولبثت وقتا طويلا مستلقيا في سريري محدقا في السقف.

أخيرا، نهضت وتناولت من الدهليز قبعة وعصا، وسرت على غير هدى باتجاه الطريق الممتدة بين الضيعة والقرية الأوكرانية القابعة فوق رابية جرداء في السهب. برزت التلال في كل مكان على مد النظر، وكانت الرؤية جيدة. إلى يساري كان منخفض

النهر، وقد انبسطت خلفه حقول خالية متدرجة الارتفاع باتجاه الأفق الذي غربت الشمس وراءه لتوها وتوهج نور الأصيل. وعلى يميني انعكست أشعته الحمراء.. .على صف من الأكواخ البيضاء المتماثلة، كما لو كانت قرية ميتة. ورحت أنظر بكآبة تارة إلى الأصيل وتارة إليها. وعندما رجعت كانت الريح تهب في وجهي دافئة حينا وساخنة تقريبا حينا آخر، وأطل في السماء الهلال الذي لم يعد بأي خير: كان أحد نصفيه يلتمع، وبدا نصفه الآخر كشبكة عنكبوت، بينما بدا كله أشبه بثمرة بلوط.

تناولنا العشاء، في ذلك المساء، في الحديقة، إذ كان جو البيت حارا، وفي أثناء تناول الطعام قلت للضابط العجوز:

- ما رأيك في الطقس يا خالي؟! أظن أن المطر سيهطل غداً.

- لماذا يا صديقي؟

- قمت بنزهة في الحقول قبل قليل، وفكرت بحزن كيف سأفارقكم عما قريب.

- ولماذا...؟!

ورفعت ناتالي بصرها نحوي أيضا سائلة:

- هل تعتزم السفر؟

- ضحكت بتكلف:

- أنا لا أستطيع.

هز الضابط العجوز رأسه بحيوية، وكانت هزته هذه المرة في محلها:

- هراء، هراء!... أنا واثق أن أباك وأمك يمكن أن يصبرا على فراقك. لن أسمح لك بالسفر قبل أسبوعين. وهي أيضا لن تسمح لك.

فقالت ناتالي على الفور:

- ليست لي أي حقوق على فيتالي بتروفيتش.

- هنا تدخلت شاكيا:

- يا خال، امنع ناتالي من مخاطبتي بهذا الشكل.

- أنا أمنعك... كفاك ثرثرة عن السفر، أما بخصوص المطر، فأنت على حق، من المحتمل جدا أن يسوء الطقس مرة أخرى.

- كان الطقس صافيا ورائعا جدا في السهوب، كذلك الهلال كان صافيا حتى منتصفه، وأشبه ما يكون بثمرة البلوط، بينما تهب ريح من الجنوب. انظروا كيف تلوح السحب في السماء!

استدار الضابط العجوز ونظر إلى الحديقة حيث كان نور القمر يتلألأ حينا ويخبو حينا آخر.

- ستصبح يا فيتالي بروسا(*) آخر.

في الساعة العاشرة دلفت إلى الشرفة. جلست ولبثت أنتظرها معتكر المزاج مفكرا: هذا كله هراء، إن كان لديها عواطف ما تجاهي فغير جادة إطلاقا، عرضية ومتقلبة... بدا الهلال صافيا واضحا في كبد السماء، ومتلألئا من خلال السحب الدخانية البيضاء، وحين طلع من خلفها بنصفه الشبيه بصورة جانبية لوجه إنسان متألق وشاحب في آن معا، سطع نوره الفوسفوري وغمر الكون. فجأة التفت، إذ أحسست بوجود أحد ما بقربي... كانت ناتالي واقفة عند العتبة شابكة يديها خلف ظهرها، وتنظر إلي صامتة... نهضت وسألتني بلا مبالاة:

(*) عالم روسي ومترجم وضع تقويم عام ١٧٠٩ الشهير وعاش فيما بين ١٦٧٠ - ١٧٣٥.

- ألم تنم بعد؟
- لقد قلت لي...
- أرجو المعذرة، أنا متعبة جدا الآن، دعنا نتمشى في الدرب قليلا، وبعد ذلك سأذهب للنوم.

تبعتها. توقفت على إحدى درجات الشرفة متملية ذؤابات أشجار الحديقة، وقد تصاعدت خلفها سحب كثيفة ثقيلة التمعت منها بروق خاطفة لم يتبعها هزيم رعد. ثم عرجت نحو درب أشجار البتولا وارف الظل، المتلألئ ببقع النور والظل. لحقت بها وحاذيتها وقلت لها قاصدا التحدث بشيء ما - أي شيء:

- ما أبهى منظر أشجار البتولا وهي تلتمع عن بعد. لا أروع ولا أبهى من الغابة في ليلة قمراء، ولا من الألق الأبيض الحريري لجذوع البتولا في أعماق الغابة...

توقفت ورنت إلي بعينين غدتا أكثر سوادا في هذا الغسق:

- هل أنت مسافر فعلا؟!
- أجل، حان الوقت.
- لكن، لم هكذا فجأة وبهذه السرعة؟ لا أكتمك: لقد صعقني نبأ رحيلك.
- ناتالي، هل تسمحين لي بالمجيء والتعرف على أهلك بعد عودتك إلى البيت؟!

لاذت بالصمت، فأخذت كلتا يديها ولثمت اليمنى مرتبكا:

- ناتالي.
- نعم، نعم، أحبك - قالت ذلك بسرعة وارتباك، واستدارت عائدة إلى البيت، فتبعتها كالمسحور.

- سافر غدا فورا - قالت دون أن تلتفت إلي - سأعود إلى البيت بعد بضعة أيام.

دخلت غرفتي وجلست على الأريكة ساكنا دون إشعال الشمعة، تسمرت في مكاني مفكرا بذلك الأمر الرائع والرهيب الذي طرأ على حياتي، دون توقع وبلا انتظار. جلست مشوش الذهن، وقد اختلط علي الزمان والمكان. كانت العتمة الحالكة الناجمة عن كثافة السحب قد أرخت سدولها على الغرفة وعلى الحديقة. في الخارج خلف النوافذ ازداد الضجيج والحفيف مع حركة الريح، مترافقا بين حين وآخر بسهام نور ساطع أخضر ضارب إلى زرقة، ينير المكان للحظة بنور خاطف، ثم يختفي في الحال. ازدادت تدريجيا سرعة وقوة هذا النور الذي لم يكن يتبعه هزيم رعد... فجأة شمل الغرفة نور باهر أضاء كل شيء فيها بشكل لا يتصوره العقل، وهبت علي ريح منعشة، وضجت الحديقة كما لو اجتاحها هلع: ها هي ذي الأرض والسماء تشتعلان بشواظ من نار! قفزت كي أغلق النوافذ، لم يكن ذلك سهلا أمام مقاومة الريح، ثم هرعت على رؤوس أصابعي في الممرات المظلمة إلى غرفة الطعام:

كان ذهني ساعتئذ مشغولا بما هو أهم من النوافذ المفتوحة في غرفتي الطعام والاستقبال، اللتين كان من المحتمل أن تحطم العاصفة زجاج نوافذهما، لكني مع ذلك قمت بالمهمة بهمة عالية. كانت جميع نوافذ هاتين الغرفتين موصدة، وقد تبينت ذلك من وهج النور الأخضر المزرق، الذي كان سماوي الألق والألوان. حقا ينبجس خطفا فينير بلحظة واحدة كل شيء، ثم يلف العالم ظلام حالك مخلفا للحظة في البصر المنبهر ظلالا صفيحية حمراء. لما

هرعت عائدا إلى غرفتي، متوجسا حدوث أمر ما طارئ، سمعت في الظلمة غب ولوجها همسا غاضبا:

- أين كنت، أنا مرعوبة، أشعل النور بسرعة.

أشعلت عود الثقاب، فرأيت سونيا جالسة على الأريكة بروب النوم، وتنتعل خفا منزليا، عارية القدمين، عاجلتني قائلة:

- لا، لا داعي لإشعال النور.. تعال إلي بسرعة، احتضني فأنا خائفة...

جلست بجانبها طائعا، وطوقت كتفيها الباردتين بذراعي، فهمست:

- هيا قبلني، قبلني، خذني بأحضانك. افترقنا أسبوعا كاملا! ودفعتني بقوة طارحة إياي معها على وسادة الأريكة.

في اللحظة ذاتها برزت ناتالي - كأنما الأرض انشقت عنها - أمام عتبة الباب المفتوح مرتدية الروب وحاملة الشمعة. رأتنا مباشرة، ومع ذلك صرخت بعفوية وبلا وعي:

- سونيا، أين أنت؟ أنا خائفة جدا.

واختفت على الفور، فاندفعت سونيا وراءها.

بعد عام تزوجت مشيرسكي. جرى الإكليل في ضيعة العريس (بلاجوداتنوي) في كنيسة شبه خالية. لم نتلق دعوات لحضور حفل الزفاف لا نحن ولا سوانا من أقارب العروسين. ولم يقم الزوجان الشابان بعد الزفاف بزيارة المجاملة المعهودة، بل سافرا فورا إلى القرم.

في شهر يناير من العام التالي أقيمت حفلة طلابية ساهرة بمناسبة يوم «تاتيانا» - عيد الطلاب في نادي مدينة فورونيج.

كنت آنئذ طالبا في موسكو أقضي عطلة عيد الميلاد عند أهلي. قصدت فورونيج مساء ذلك اليوم العاصف المثلج راكبا القطار. عندما وصلت المحطة استأجرت زحافة انطلقت بي إلى «فندق النبلاء»، حيث تقام الحفلة، وكانت العاصفة الثلجية على أشدها إذ بصعوبة كان يُرى وميض فوانيس الشارع. لكن أثارت هذه العاصفة الثلجية وأنوار المدينة بينما، كنت أعبر الشارع، لدي شتى الانفعالات، إذ كنت، بعد أيام قضيتها في القرية، على موعد مع المدينة، مع الدفء في الفندق العتيق لمركز المقاطعة... رحت أفكر في طلب السماور فور وصولي الفندق، وفي تبديل ملابسي استعدادا للحفلة التي ستتواصل طوال الليل وفي السكر مع زملائي الطلاب حتى الفجر. خلال المدة التي أعقبت تلك الليلة الرهيبة في منزل تشيركاسوف، ومن ثم زواجها، ثبت إلى رشدي تدريجيا، أو على الأصح تصالحت مع وضعي كمريض يعاني فعلا في أعماقه، لكنه يعيش ظاهريا كسائر الناس الآخرين.

عندما وصلت كانت الحفلة في بدايتها، لكن غصت السلالم الرحبة البهية بالوافدين، وكذلك مدخل قاعة الاحتفال التي صدحت فيها ومن شرفاتها الخاصة بالموسيقيين الأوركسترا العسكرية الهادرة بألحان الفالس الحزينة والمهيبة. دخلت الفندق بعد أن استنشقت للتو الهواء المنعش في الجو الصقيعي، مرتديا بزتي الجديدة. لذا سرت وسط الزحام بأدب جم، يتناسب والمقام فوق السجاد الأحمر على السلالم، ثم بين الجمهور المحتشد خارج القاعدة ودون توقف حتى المدخل، حتى ظن البعض أني مدير الحفلة، أسعى إلى داخل القاعة لأمر ما

عاجل. توقفت عند العتبة مصغيا إلى صداح وهدير الأوركسترا فوق رأسي مباشرة، منقلا بصري بين أمواج بريق الثريات والأضواء وعشرات أزواج الراقصين تحتها على أنغام الفالس. بغتة تراجعت متقهقهرا إلى الوراء ، إذ برز أمامي دونما توقع أبدا، وسط هذ الحشد الدائر، زوج من الراقصين يقترب مني بنقلات سريعة رشقية. تراجعت وقد تبينت هيئته الضخمة المتينة المحدودبة قليلا في الرقص بالفراك الأسود وبشعره الأسود اللماع، وبخفة الحركة التي يبديها في الرقص عادة بعض من ذوي الجثث الثقيلة. أما هي فكانت شامخة الرأس بتسريحة شعر عالية احتفالية، مرتدية فستانا أبيض وحذاء مذهبا أنيقا، تدور مبعدة رأسها عن رفيقها في الرقص، مسبلة العينين، واضعة على كتفه ذراعها في قفاز أبيض حتى المرفق، مع انثناءة تبدو معها أشبه بطائر التم. في لحظة ما، خلال حركات الرقص، اصطادتني عيناها السوداوان مباشرة، وتلألأ سواد مقلتيها أمامي، لكنه أدارها بهمة رجل متين البنية منسابا على طرفي حذائه اللماع، انفرجت شفتاها عن نهدة لدى الانعطاف، ولمع طرف فستانها ببريق فضي، ثم ابتعدا عائدين من حيث جاءا بنقلات راقصة.

تراجعت إلى العتبة التي ازدحمت بالواقفين، ثم خرجت من القاعة لأجد نفسي أمام باب جانبي مفتوح مفض إلى قاعة ما تزال خالية وباردة تماما. في عمق المكان بدت طالبتان في ثياب أوكرانية خلف منصة بوفيه امتلأت بزجاجات الشمبانيا: شقراء مليحة وحسناء قوقازية مخيفة سمراء أطول من زميلتها بمقدار

الضعفين. دخلت البوفيه، حييت ومددت يدي بورقة نقدية من فئة مئة روبل، فاصطدمتا بالرأسين لدى انحنائهما لانتشال زجاجة شمبانيا من إناء الثلج، وارتبكتا قليلا خجلتين، إذ لم تكن لديهما زجاجة مفتوحة. دخلت خلف المنصة وفتحت سدادة الزجاجة برشاقة ومهارة مع فرقعة قوية. عرضت عليهما بأدب احتساء قدح معي (*) Gaudeamus igitur، وشربت ما تبقى وحدي قدحا تلو آخر. في البداية تطلعتا إلى مذهولتين، ثم بشيء من الشفقة:

- أوه، لكنك تبدو شاحبا فعلا!

شربت الشمبانيا حتى الثمالة وخرجت فورا... وفي غرفتي في الفندق طلبت زجاجة كونياك قوقازي، ورحت أشرب بأقداح شاي كبيرة؛ عسى أن أقضي نحبي بنوبة قلبية...

مر عام آخر ونصف... وذات يوم، في أواخر شهر مايو ، كنت قد عدت مرة أخرى من موسكو إلى بيت الأهل، حمل رسول خاص من المحطة برقية من بلاجودتنوي تقول: «توفي صباح اليوم بغتة ألكسي نيكولايفتش بالسكتة القلبية». رسم أبي إشارة الصليب على صدره، وقال:

- يالها من مصيبة! ليغفر لي الرب أنني لم أكن له المودة. أمر فظيع فعلا، فهو لم يبلغ سن الأربعين بعد. وأسفي الشديد على تلك الأرملة الشابة مع طفل صغير... حسناء جذابة. ما العمل الآن! طبعا لا أستطيع أنا وأمك، ونحن في سن الكهولة، تحمل مشقة السفر لمسافة مائة وخمسين فرسخا. عليك أن تسافر أنت.

ما كان ممكنا أن أرفض، ولأي سبب أرفض؟ وما كنت لأستطيع

(*) هيّا نسرح! (باللاتينية) - العبارة الأولى من أغنية طلابية.

الرفض بحجة شبه الجنون الذي حل بي فجأة إثر هذا النبأ الصاعق. كنت أعرف شيئا: إنني سأراها!... وسبب اللقاء رهيب، لكنه مشروع.

أرسلنا برقية جوابية. وفي اليوم التالي من أيام شهر مايو مساء نقلتني الخيول التي أرسلت من بلاجوداتنوي إلى المنزل خلال نصف ساعة. عندما اقتربت منه، وكان على رابية، مطلا على مروج تغمرها المياه، رأيت من بعيد جانبه الغربي المواجه للغسق، وقد أغلقت كل نوافذ القاعة فيه، فجفلت إذ خطرت في ذهني فكرة رهيبة: خلف هذه النوافذ يرقد هو، وهي موجودة هناك! في الفناء الذي كسته حشائش طرية قرب عنبر العربات، رنت جلاجل عربتي ترويكاما، لكن لم يكن ثمة سوى حوذيين أخذا مكانهما في مقعدي العربتين، بينما كان الوافدون والخدم داخل البيت يؤدون صلاة الجنازة. كان هدوء الأصيل المعهود في شهر مايو شاملا المكان، إضافة إلى نقاء الجو الربيعي ونضارة وحيوية كل شيء: هواء الحقول والنهر، الحشائش الطرية الكثيفة في الفناء، والحديقة المزهرة الكثيفة الزاحفة نحو البيت من خلفه وجنوبه؛ أما عند عتبة مدخله وأمام أبوابه المشرعة، فكان يستند إلى الجدار غطاء النعش الكبير الأصفر الصقيل. ومع طراوة نسيم المساء، فاحت بقوة الرائحة الحلوة لزهور أشجار الأجاص، التي بدت بيضاء حليبية كثيفة في الجانب الشرقي من الحديقة في ظل صفحة السماء التي انعكس عليها هذا البياض الحليبي، وحيث كان «المشتري» يسطع ببريق وردي وحيدا... فجأة أحسست كأنما يتمزق قلبي كمدا وسعادة وحاجة إلى الحب لدى مرأى

نضارة وروعة هذا العالم الماثل أمامي... مفكرا بحسن وشباب من أحبتني في يوم ما، قفزت من العربة أمام المدخل مع إحساس أنني على شفير الهاوية.. فكيف أدخل هذا البيت وأقابلها وجها لوجه، بعد ثلاث سنوات من الفراق، وهي أرملة وأم! وهكذا دخلت إلى تلك القاعة المعتمة المفعمة برائحة البخور والظلال الصفراء لأنوار الشموع، واقتربت من حشد الواقفين حاملي الشموع أمام النعش الممدد بشكل مائل مع ارتفاع من جهة الرأس نحو ركن الإيقونات، وينيره من الأعلى مصباح أحمر كبير التمعت معه الأطر الذهبية للأيقونات، ومن الأسفل ثلاث شمعات كنسية تسيل منها قطرات فضية متلألئة. كان الكهنة يدورون منحنين حول النعش بصلوات وترانيم ومع مبخرة. أطرقت رأسي كي لا أرى الغطاء الأصفر المقصب للنعش ووجه المرحوم، وكنت أخشى ما أخشاه أن أراها هي. ناولني أحدهم شمعة مشتعلة فأمسكتها وأنا أحس كيف تهتز وتدفئ وتنير وجهي الشاحب، وأصغيت بخشوع واستسلام إلى الصلوات وإلى صوت حركة المبخرة، ورأيت، وأنا مطرق رأسي، دخانها المتصاعد نحو السقف. فجأة رفعت رأسي دونما قصد فلمحتها، كانت واقفة أمام جمع الناس بملابس الحداد حاملة بيدها شمعة تنير خدها وذهب شعرها. وهنا لم أعد أقوى على تحويل بصري عنها، كأنها أيقونة. عندما انتهت تلك المراسم وانتشرت روائح الشموع المطفأة وتقدم الحاضرون نحوها يقبلون يدها انتظرت كي أكون آخر المعزين. وعندما اقتربت منها رمقت برهبة رشاقتها في الثوب الأسود الذي جعلها أكثر نقاء وطهرا، والجمال البكر لوجهها وأهدابها ومقلتيها اللتين أطرقتا لدى

رؤيتي، وانحنيت لأقبل يدها وقلت بصوت هامس غير مسموع تقريبا كل ما كان ينبغي أن أقوله وما تقتضيه اللياقة والمناسبة وصلة القربى، وطلبت السماح بالانصراف لقضاء الليلة في الحديقة، في الجناح القديم، الذي كنت أنام فيه عندما كنت تلميذا في أثناء زياراتي إلى بلاجوداتنوي. هناك كانت غرفة نوم لمشيرسكي يلجأ إليها في ليالي الصيف الحارة. فردت دون أن ترفع بصرها: سآمر أن يأخذوك إلى هناك ويقدموا العشاء لك.

وفي الصباح رحلت فور انتهاء مراسم الدفن.

وعند الوداع تبادلنا بضع كلمات، ودون أن تتقابل نظراتنا أيضا.

أنهيت الدراسة. بعدها بفترة قصيرة توفي أبي وأمي، فانتقلت إلى العيش في القرية لإدارة أملاكي. في تلك الآونة أقمت علاقة مع فلاحة يتيمة اسمها جاشا، نشأت وترعرعت عندنا في البيت، وعملت خادمة في جناح أمي... وصارت تخدمني الآن مع إيفان لوكيتش العجوز الأشيب المخضرم المحدودب، أحد فلاحينا الأقنان سابقا.

كانت أشبه بطفلة صغيرة الحجم، نحيلة، سوداء الشعر، وبعينين سوداوين خاليتين من أي تعبير، صموت، كما لو أنه لا يعنيها أي شيء، بشرتها رقيقة ناعمة شديدة السمرة، حتى أن أبي قال ذات مرة: «هكذا تماما كانت هاجر(*)». كنت أجدها حلوة لطيفة المعشر ويطيب لي أن أحملها على ذراعي وأقبلها. فكرت في نفسي: «هذا كل ما بقي لي في الحياة!»، وبدا أنها

(*) جارية النبي إبراهيم التي أنجبت إسماعيل.

أدركت ما كان يدور في خلدي. وحين ولدت طفلا صغيرا أسود الشعر وكفت عن القيام بواجبات الخدمة، انتقلت إلى العيش في حجرتي القديمة أيام الطفولة، وأردت أن أعقد قراني عليها، لكنها أجابت:

- لا، لا حاجة لي بذلك، سأشعر بالخجل فقط أمام الناس، فأي سيدة أنا! وما حاجتك لذلك؟ عندئذ سينتهي حبك لي سريعا... من الأفضل لك أن تسافر إلى موسكو لأنك ستضجر وتَملُّني. أما أنا فلن أعرف الملل بعد ذلك - ونظرت إلى الطفل الذي كان يرضع من ثديها - سافر واستمتع بحياتك، لكن تذكر شيئا واحدا: إذا وقعت في غرام إحداهن وقررت الزواج، فلن أتوانى لحظة عن الانتحار غرقا أنا وهو.

نظرت إليها، كان مستحيلا ألا أصدقها. أطرقت رأسي وفكرت: لم أتجاوز السادسة والعشرين بعد... لكن الغرام والزواج كانا من الأمور التي لا أستطيع تصورها، وهكذا ذكرتني كلماتها من جديد بحياتي التي لا مستقبل لها.

مع مطلع الربيع سافرت وأمضيت في الخارج أربعة أشهر. ولدى عودتي في نهاية شهر يونيو إلى البيت عبر موسكو فكرت كالآتي: أقضي الخريف في القرية، وفي الشتاء أسافر إلى مكان آخر. وفي الطريق بين موسكو وتولا أحسست بنوع من الكآبة الهادئة: هأنذا، من جديد، في البيت. لكن لأي غرض؟ تذكرت ناتالي وفكرت: نعم إن هذا الحب «أبدي»، الذي تنبأت لي به سونيا، قائم فعلا، لكني اعتدت عليه كما يعتاد أي كان مع مرور الزمن على الأمر حتى حين تبتر، مثلا، ساقه أو يده... وفجأة

نهضت، بينما كنت جالسا في المحطة بمدينة تولا بانتظار تبديل القطار، وأرسلت البرقية التالية: «أنا مسافر من موسكو بطريقكم. سأصل إلى محطتكم في التاسعة مساء. اسمحي لي بأن أعرج عليكم لمعرفة أحوالكم».

استقبلتني عند الباب، كان ثمة مصباح يضيء من خلفها، مدت لي يدها وعلى ثغرها شبه ابتسامة:

- أنا سعيدة للغاية.

- مهما كان وجه الغرابة، لكنك تبدين أطول قليلا - قلت هذا وأنا أقبل يديها وأتحسسها بألم - ونظرت إليها كلها على ضوء المصباح الذي رفعته الخادمة، وحومت حول زجاجته فراشات وردية اللون في هذا الجو الرائق عقب المطر:

بدت عيناها السوداوان ترنوان إلي بثبات وثقة أكبر، امرأة في عز الشباب والجمال، هيفاء، أنيقة ببساطة، ترتدي فستانا أخضر من قماش التيسور.

أجابت مع ابتسامة حزينة:

- نعم، ما برحت أنمو...

كما في السابق، تدلى سراج أحمر كبير في الزاوية الأمامية للقاعة أمام الأيقونات القديمة المذهبة، لكن لم يشعل. أشحت ببصري سريعا عن تلك الزاوية، وتبعتها إلى غرفة الطعام. كان ثمة فوق غطاء لماع إبريق شاي فوق موقد الكحول وأوعية شاي رقيقة أنيقة. وأحضرت الخادمة لحم عجل بارد أو خيارا مخللا، وزق فودكا وزجاجة نبيذ «لافيت».

وأخذت تصب الشاي قائلة:

- أنا لا أتعشى، بل أشرب الشاي فقط. عليك أنت أن تتناول بعض الطعام أولا. أنت قادم من موسكو، أليس كذلك؟ لأي سبب كنت هناك؟ وماذا يفعل المرء صيفا هناك؟

- أنا عائد من باريس...

- آه، هكذا إذن! وهل أقمت هناك طويلا؟ آه لو كان بوسعي السفر إلى مكان ما! ابنتي ما زالت في عامها الرابع... يقال إنك مجتهد في إدارة أملاكك.

شربت قدح فودكا دون تناول شيء من الطعام، وسألتها السماح لي بالتدخين:

- آه، تفضل!

أشعلت السيجارة، وبدأت الحديث:

- ناتالي، لا داعي لمجاملتي، ولا توليني اهتماما خاصا. عرجت كي أراك وأطمئن أولا عليك، ثم أبتعد عن طريقك مرة أخرى. لا تحرجي نفسك، فما كان ولى دونما رجعة، وأصبح في حكم الماضي. لا شك في أنك ترينني متيما بك حتى العمى، لكن إعجابي بك لا يمكن أن يكون مصدر إزعاج لك على الإطلاق، إنه إعجاب هادئ منزه عن الغرض.

أطرقت رأسها وأسبلت أهدابها - لم يكن ممكنا التعود على التناقض الساحر بين ذاك وتلك - وطفق محياها يصطبغ بلون وردي.

تابعت حديثي بصوت ينم عن حزم، محاولا إقناع نفسي أيضا، بينما شحب وجهي:

- ذلك صحيح تماما... فكل شيء في الدنيا إلى زوال، والزمن كفيل بتضميد كل الجراح. أما بخصوص الذنب الذي اقترفته بحقك، فأنا

واثق من أنك تجاوزته، وصار مفهوما وقابلا للغفران أكثر بقدر أكبر من السابق. عدا ذلك فالذنب لم يقع بإرادتي، كما أنه خليق بالتسامح نظرا لصغر سني آنئذ، وللظرف الخاص الذي ألفيت نفسي فيه. وفوق هذا وذاك فقد نلت الجزاء الوافي، إذ تحطمت حياتي كلها.

- تحطمت حياتك؟!

- أليس الأمر كذلك؟ أما زلت لا تفهمينني ولا تعرفينني، كما قلت ذلك ذات مرة آنذاك؟!

لاذت بالصمت.

- شاهدتك في الحفلة في فورونيج... كم كنت فتية، كم كنت تعيسة آنذاك! آه، لكن هل هناك حب تعيس؟ - قالت ذلك رافعة رأسها ومتسائلة بكل سواد عينيها ورموشها - ألا تمنح الموسيقا الحزينة السعادة؟ لكن حدثني عن نفسك. هل يعقل أنك قررت الاستقرار في القرية إلى الأبد؟

سألتها مرتبكا:

- هل معنى ذلك أنك كنت ما تزالين تحبينني آنذاك؟

نعم.

- صمتت... لكني أحسست بوجهي ملتهبا كالنار الآن!

- هل صحيح ما سمعته... من أنك تحب ولديك طفل؟

فأجبت:

- ليس حبا... شفقة وحنان ليس أكثر...

- حدثني عن كل شيء...

رويت لها كل شيء وصولا إلى ما قالته لي جاشا ناصحة إياي بأن «أسافر وأعيش على هواي مستمتعا بالحياة»... وأنهيت كلامي قائلا:

- الآن، ترين أنني محطم تماما...

قالت مفكرة:

- ما زلت في مقتبل العمر، والحياة أمامك. لكن الزواج بالنسبة إليك مستحيل طبعا. إنها من ذلك الصنف من النساء اللواتي لا يرحمن حتى الطفل، فما بالك بنفسها.

- المسألة ليست في الزواج. رحماك يا رب! أنا أتزوج!

نظرت إلي متأملة:

- نعم، نعم. ياللعجب.. صدقت نبوءتك وغدونا أقرباء، أتشعر الآن أنك بمنزلة ابن عمي؟

وضعت يدها على يدي مضيفة:

- أراك متعبا جدا من السفر، حتى لم تمس شيئا من الطعام. كفى حديثا اليوم. هيا، فراشك جاهز في الجناح.

لثمت يدها طائعا مستسلما. استدعت الخادمة، فجاءت وفي يدها مصباح، رغم أن البدر البادي على علو منخفض خلف الحديقة كان منيرا. قادتني في البداية عبر الممر الرئيسي، ثم عبر آخر جانبي إلى فسحة واسعة، ومنها إلى الجناح القديم العريق ذي الأعمدة الخشبية. جلست على كنبة بجانب السرير عند النافذة المفتوحة، ورحت أدخن سارحا مع أفكاري: عبثا أقدمت على هذا الفعل الغبي المفاجئ، وعبثا جئت إلى هنا معتمدا على قوة إرادتي واثقا بنفسي... كان الليل ساجيا رائقا والوقت متأخرا. بدا أن زخة مطر خفيفة قد هطلت، إذ غدا الهواء دافئا وساكنا أكثر.. وبالتناغم مع هذا السكون والدفء الصامت، راحت الديكة المبكرة تصيح من بعيد في شتى أنحاء

القرية بأصوات مديدة وحذرة... بدا كما لو أن قرص البدر المعلق مقابل الجناح خلف الحديقة قد جمد في مكانه، وكما لو كان يرنو منتظرا، وتألق وسط الأشجار البعيدة وأشجار التفاح المتشابكة الأغصان، فاختلط نوره بظلالها. بدا ساطعا صافيا كالزجاج حيث شق النور دربه، أما في الظل فعكس برقشة وغموضا... هنا تراءت لي هي برداء طويل غامض حريري اللمعان، ودنت من النافذة غير مسموعة الخطى وبغموض أيضا... تلألأ البدر فوق الحديقة وأخذ يحدق في الجناح مباشرة، وواصلنا الحديث بالتناول، هي مستلقية على الفراش، بينما أنا راكع علي ركبتي ماسكا بيديها:

- في تلك الليلة الرهيبة ذات البروق كنت أحبك وحدك، ولم يكن في أعماقي تجاهك اي هيام سوى ذلك الهيام العذري النقي الأكثر نشوة.

- نعم، أدركت كل ذلك مع مرور الزمن. ومع ذلك عندما تذكرت تلك البروق، فجأة، وبعدما تذكرت ما كان قبل ذلك بساعة في الدروب.

- ليس ثمة في أي مكان من العالم من تضارعك... فعندما تطلعت قبل برهة إلى رداء التيسور الأخضر هذا، وإلى ركبتيك تحته أحسست أني مستعد لأن أموت لمجرد لمسة بشفتي لمسة لا أكثر.

- ألم تنسني أبدا، أبدا طوال هذه الأعوام؟

- كنت أنساك فقط كما ينسى المرء أنه يعيش ويتنفس... وأنت قلت الحقيقة: لا يوجد حب تعيس. آه من قميصك البرتقالي ذاك، ومن كيانك كلك حينما كنت تدرجين نحو الصبا الذي ومض

أمامي ذات ضحى، الضحى الأول لغرامي بك! ثم من معصمك في ردن القميص، فانحناءة الرأس عندما كنت تقرئين رواية «الهاوية»، وغمغمت أنا: «ناتالي، ناتالي!».

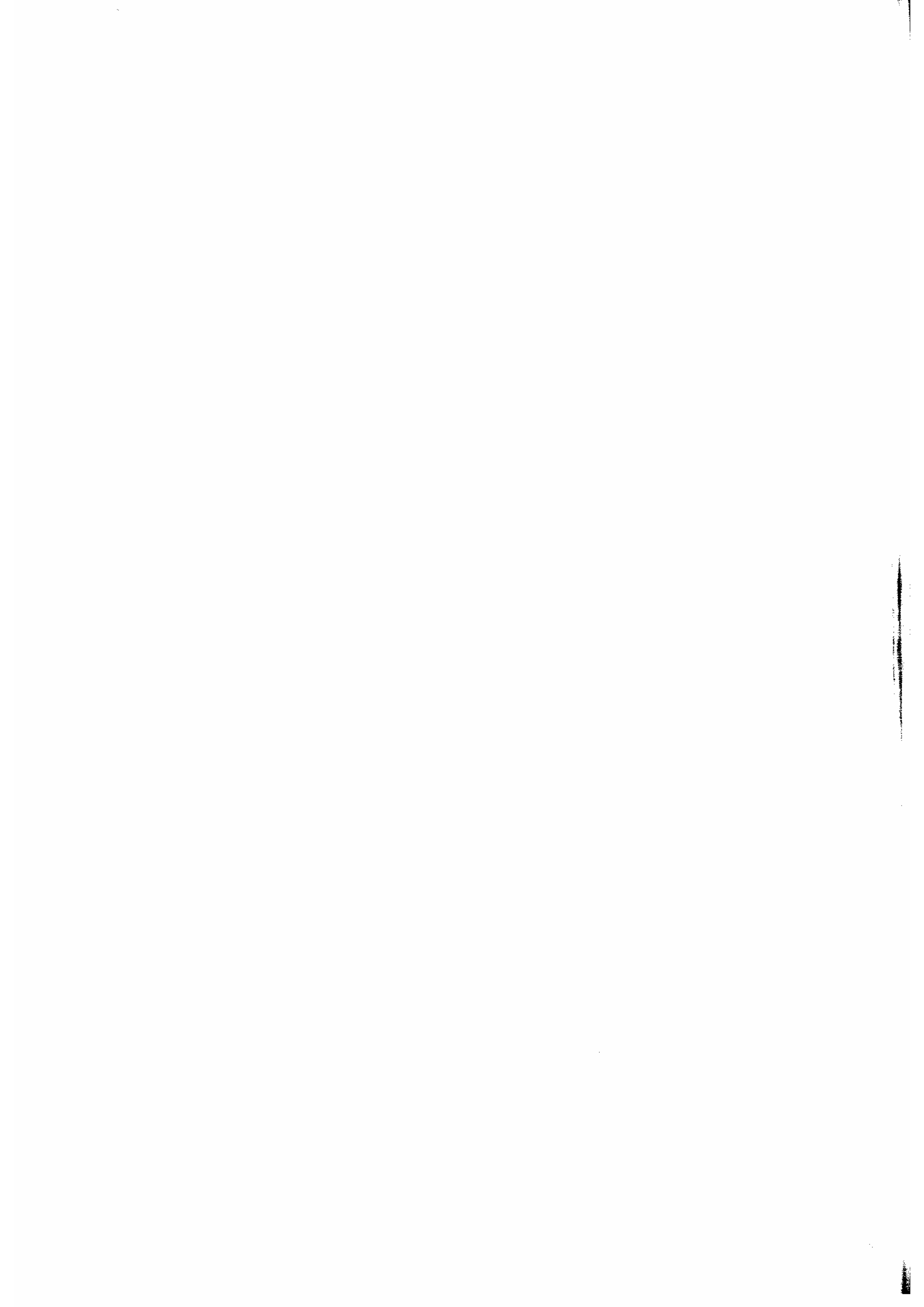
- نعم، نعم...

- ثم رأيتك في الحفلة الطلابية الساهرة. كنت فارعة الطول، وأفزعني حسنك الأنثوي الساحر. لكم تمنيت لو أقضي نحبي في تلك الليلة في نشوة الحب والموت!.. بعد ذلك رأيتك والشمعة في يدك، بملابس الحداد وطهارتك فيها.. وتراءى لي أن الشمعة صارت مقدسة أيضا، إذ اقتربت من وجهك.

- ها أنت معي مرة أخرى وإلى الأبد. لكن نادرا ما سنلتقي، فهل بوسعي، أن أصبح زوجتك في السر، بدلا من أن أكون عشيقتك في العلن أمام الناس؟

في ديسمبر توفيت بجوار بحيرة جنيف إبان مخاض ولادة قبل الأوان.

ضربة شمس



خرجا، بعد الغداء، من المطعم المضاء بأنوار ساطعة حارة، وصعدا إلى ظهر السفينة. توقفا أمام الدرابزين. أغمضت عينيها وأسندت خدها إلى ظاهر كفها، وأطلقت ضحكة عفوية فاتنة - كل مافي هذه المرأة الصغيرة كان فاتنا - وقالت:

- أعتقد أني ثملة ... من أي دنيا أتيت...؟! قبل ثلاث ساعات لم أكن أعلم حتى بوجودك. حتى أني لا أعرف من أي محطة صعدت.. من سمارا؟ لكن لا يهم ... أرأسي يدور، أم أن السفينة تدور بنا باتجاه آخر؟

انبسطت أمامهما خيوط من الظلمة والأضواء. هبت عليهما من العتمة نسمات طرية داعبت وجهيهما. أما الأضواء فقد انزاحت مبتعدة في اتجاهات أخرى.

كان المركب ينعطف بحدة وبمهارة فولجية (*)، راسما قوسا واسعا، ليرسو في محطة صغيرة. أخذ الملازم يدها ورفعها إلى شفتيه. كانت يدا صغيرة قوية فاح منها رائحة البشرة المتشبعة بالشمس. وجف قلبه غبطة ورهبة، إذ تصور، في الحال، سمرة ومتانة جسدها، تحت هذا الثوب الخفيف الخشن النسيج، بعد شهر من التمدد على الرمل البحري الحار تحت شمس الجنوب (قالت إنها قادمة من أنابا).

- دعينا ننزل ...

سألته بدهشة:

- إلى أين؟

- إلى هذه المحطة.

(*) نسبة إلى نهر الفولجا في أواسط روسيا وسكان منطقته - المترجم.

- لماذا؟

صمت ... مرة أخرى، أسندت خدها الحار إلى ظاهر يدها وغمغمت:

- جنون ...

- تعالي - كرر بفظاظة - أرجوك ...

- أوه، افعل ما تشاء ...

وأشاحت بوجهها عنه ...

ارتطم المركب، مع اندفاعه، برصيف المحطة المضاءة بنور خافت، وكاد يهوي أحدهما على الآخر من جراء الاهتزاز المفاجيء، طوحت فوق رأسيهما المرساة، ثم بدت متراجعة إلى الخلف قبل أن تسقط بقوة محدثة دوائر في الماء الراكد، ضجت السلالم ... فاندفع كي يأخذ الأمتعة ...

بعد دقيقة عبرا مكتب المحطة، وخرجا إلى الشاطئ الرملي، ثم جلسا بصمت في عربة للركاب. بدت لهما الطريق المغبرة الصاعدة في الجبل وسط فوانيس قليلة مائلة ممتدة من دون نهاية. لكن هاهما قد وصلا إلى ساحة، وإلى بقعة مأهولة وتناهى إليهما دفء وروائح بلدة صيفية ليلية ... توقف الحوذي قرب مدخل مضاء، انتصب خلف أبوابه المشرعة درج خشبي عتيق. تناول خادم عجوز غير حليق يرتدي صدارا أحمر وسترة أشياءهما بعبوس، وسار أمامهما على قدمين عجفاوين.

دخلا إلى حجرة واسعة أسدلت على نوافذها ستائر بيضاء وانتصبت على منضدة المرآة فيها شمعتان. كانت الحجرة حارة بشكل خانق، إذ ألهبتها الشمس طوال نهار كامل. ما إن دخلا

وانصرف الخادم مغلقا الباب خلفه حتى اندفع الملازم نحوها ... واختنقت أنفاسهما في قبلة طويلة ظلا، لسنوات كثيرة فيما بعد، يتذكران تلك الدقيقة: لم يعش أحد منهما، لا هو ولا هي، مثل تلك اللحظة طيلة حياتهما.

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم مشمس حار سعيد، فيما الكنائس تقرع أجراسها ووسط جلبة السوق في الساحة أمام الفندق، وانبعاث روائح القش والقطران وأخلاط أخرى تحفل بها كل مدينة روسية نائية، رحلت تلك المرأة الصغيرة التي لم تشأ ذكر اسمها، بل أطلقت على نفسها مازحة اسم: المجهولة الفاتنة. لم يناما إلا قليلا، لكنهما خرجا في الصباح من خلف الحاجز القائم بجانب السرير، اغتسلا في خمس دقائق وارتديا ملابسهما ... وعادت نشيطة منتعشة كفتاة في السابعة عشرة. هل كانت مرتبكة؟ ... كلا، قليلا جدا، وكعادتها بدت بسيطة مرحة، لكن أكثر رزانة ... طلب منها أن يبقيا سوية ويسافرا معا، فقالت:

- لا، لا ياعزيزي ... يجب أن تبقى هنا، وتنتظر السفينة التالية، إن ذهبنا معا خرب كل شيء، وسيضايقني ذلك، أقسم لك أنني لست كما يمكن أن تظنني. لم يسبق أن حصل معي في حياتي مثيل لما حصل، ولن يحصل بعد مثله. ما حدث لي كان أشبه بالكسوف، فألفيت نفسي منقادة ... على الأصح، بدا كأنما كلانا قد تلقى ما يشبه ضربة شمس.

وافقها الملازم. اقتنع معها على نحو ما، ورافقها بكل سرور وطيب خاطر إلى المحطة. وصلا في اللحظة الأخيرة، بينما كانت «الطائرة» الوردية تستعد للانطلاق، تعانقا وقبّل كل منهما الآخر

على مرآى من كان على سطح السفينة، ثم أسرع قافزا على السلم الذي كان يسحب إلى الخلف.

عاد بخفة وهدوء بال إلى الفندق. لكن أحس أن شيئا ما قد تغير؛ فالحجرة من دونها بدت على غير ما كانت عليه. ما زالت ممتلئة بأثرها من جهة وفارغة من جهة ثانية. ذلك أمر عجيب! ... ما زال المكان مفعما بعطرها الإنجليزي، وها هو فنجانها، وفيه بقية، أما هي فغير موجودة...، فجأة انقبض قلب الملازم واجفا، ثم شرع يدخن، ويذرع الحجرة جيئة وذهابا.

- يالها من مغامرة عجيبة! - قالها بصوت مسموع ضاحكا بينما أحس بالدموع تتدفع إلى عينيه. تذكر: «أقسم لك أنني لست كما يمكن أن تظنني...» ورحلت .

كان الحاجز مزاحا، والسرير على حاله غير مرتب. أحس، وبكل بساطة، أنه غير قادر على النظر إلى هذا السرير، فغطاه بالحاجز وأغلق النافذة كي لا يسمع لغط الناس في السوق وصرير العجلات، وأسدل الستائر البيضاء وجلس على الأريكة ... ها هي «مغامرة السفر» قد انتهت ... قد تكون جالسة الآن في صالون زجاجي أبيض، أو على ظهر السفينة تنظر إلى صفحة النهر الكبير المتألق تحت الشمس، وإلى المراكب الأخرى المواجهة، وإلى بقع الماء الضحلة الصفراء، وإلى الأفق المتلألئ، وإلى الماء، وإلى أمواج الفولجا اللامتناهية... وداعا إلى الأبد، إلى الأبد... إذ أين يمكن أن نلتقي مرة أخرى؟ «لا أستطيع هكذا ومن دون سبب السفر إلى تلك المدينة حيث تقيم هي وزوجها وابنتها ذات الأعوام الثلاثة، وحيث كل أسرتها وحياتها اليومية الاعتيادية!».

وبدت له تلك المدينة لا كالمدن الأخرى، وأذهلته فكرة أنها ستعيش فيها وحيدة تتذكره بين الحين والآخر، وتتذكر لقاءهما السريع العابر، وأنه لن يراها بعد الآن أبدا. كل هذا مستحيل! ذلك سيكون أمرا غير طبيعي وغير صحيح إطلاقا. وأحس بالألم وبعبثية كل حياته اللاحقة من دونها، فتملكه الرعب واليأس.

نهض عن الأريكة وراح يحدث نفسه، وهو يذرع الحجرة ذهابا وإيابا، محاولا ألا ينظر إلى السرير خلف الحاجز: «ما هذه اللعنة، ماذا حصل لي بالضبط؟ فعلا كأنها ضربة شمس! والأهم من كل ذلك هو كيف سأمضي الآن من دونها هذا اليوم بطوله في هذا المنفى البعيد ...؟».

ما زالت تملأ المكان، وما زالت حاضرة معه بأدق تفاصيلها وخصائصها ... ها هي رائحة بشرتها المشوية بالشمس، ها هو ثوبها الخفيف وصوتها العفوي المرح الرنان... كان إحساس الاستمتاع بكل تلك الفتنة والبهاء الأنثوي ما يزال يغمر كيانه بشكل حي وغير عادي، لكن المهم الآن أيضا هو الإحساس الآخر الجديد الذي يكابده، الإحساس الغريب الغامض الذي برز، ولم يكن ليتوقعه، إثر هذه العلاقة، والذي لا يستطيع أن يبوح لها به، «أبدا لن أستطيع البوح به لها، لأنها غير موجودة ولن تكون... فما العمل؟ وكيف سأمضي هذا النهار الطويل وحيدا مع هذه الذكريات، مع هذه العذابات التي تحاصرني في هذه البلدة المنسية، الراقدة فوق نهر الفولجا المتألق، الذي حملها وحمل مركبها الوردي!».

غدا من الضروري أن ينقذ نفسه، أن يجد مخرجا ما، أن يشغل نفسه، أن يذهب إلى مكان آخر. اعتمر صداره، تناول عصاه، عبر

الممر الفارغ، ومهمازاه يخشخشان وهبط الدرج مسرعا إلى المدخل... لكن إلى أين المفر؟ كان يقف أمام المدخل حوذي شاب يرتدي سترة أنيقة ويدخن سيجارته بهدوء... التفت الملازم إليه باستغراب وذهول: «كيف بوسعه الجلوس والتدخين هكذا بهدوء، خلي البال وبلا مبالاة؟ ربما أنا الوحيد، في هذه المدينة كلها، الذي يحس بهذه التعاسة الفظيعة» ... واتجه إلى السوق.

وصل إلى السوق بينما كان قد بدأ يخلو من الباعة والزبائن. مشى على القش الرطب متسكعا بين البسطات المحملة بالخيار، بين باعة الصحون والجرار والنساء المفترشات الأرض، اللواتي نادينه بأصوات مختلطة متناوبة، حاملات الجرار بأيديهن، وهن يقرعنها لإظهار متانتها وحسن صنعها. أما الرجال فقد أصمّوه من الصراخ كل على طريقته - «خيار صنف أول يا كريم!» .. بدا له المشهد كله غبيا، أخرق، وخرج مسرعا. دخل إلى الكنيسة ... كان المؤمنون ينشدون بصوت جهوري جدّي فرح وبإحساس من يؤدي ما عليه من واجب، ثم تسكع في حديقة صغيرة قائظة مهملة عند منحدر جبل مطل على نهر عريض تبدو صفحة مائه صقيلة ساطعة كما الفولاذ ... حتى ذلك الحين كانت أزرار وأكتاف سترته قد سخنتا، بشكل مزعج، تحت حر الشمس، كما تبلل إطار صداره من الداخل بالعرق واحمر وجهه ... عاد إلى الفندق، فأحس بالانتعاش وهو يدلف نحو المطعم الرحب الفارغ البارد في الطابق السفلي. خلع صداره مسرورا وجلس إلى طاولة قرب نافذة مفتوحة هب منها وهج، لكن مع نسيم رقيق.

طلب حساء خضار باردا مع الثلج ... كان ثمة سعادة غامرة لا حدود لها وفرح عظيم، حتى في ظل هذاالقيظ الخانق وروائح السوق في هذه البلدة الغريبة، وفي هذا الفندق الريفي العتيق، لكن، وفي الوقت نفسه، كان قلبه يتمزق. شرب عدة أقداح من الفودكا مع خيار مخلل قليل الملح، وأحس أنه مستعد للموت غدا، ودونما تفكير، فيما لو أمكن، بمعجزة ما، استعادتها وقضاء هذا النهار أيضا معها، كي يبوح لها، كي يبرهن لها ويقنعها أنه يحبها حتى حدود الألم والفظاعة ... لمَ البرهنة؟ لم الإقناع؟ ليس لديه جواب، لكنه أحس أن ذلك أهم من الحياة ذاتها.

- أفلتت أعصابي تماما - قال ذلك وهو يصب قدح الفودكا الخامس.

أبعد طبق الحساء جانبا وطلب قهوة، ثم راح يدخن ويفكر متوترا: «ماذا يفعل الآن، كيف يتخلص من هذا الحب المباغت الذي تملكه؟ لكن التخلص منه مستحيل»، أحس ذلك بقوة. وهكذا نهض مرة أخرى مسرعا إلى هناك وفي رأسه جملة جاهزة لبرقية: «حياتي كلها منذ الآن وإلى الأبد، حتى القبر ملك لك، تحت سلطتك». لكن عندما وصل إلى البناء القديم السميك الجدران، حيث البريد والتلغراف، توقف متضايقا خائبا: كان يعرف اسم المدينة التي تقيم بها، وأن عندها زوجا وابنة في الثالثة من العمر، لكنه لا يعرف كنيتها ولا اسمها! لقد سألها عدة مرات عن ذلك البارحة أثناء تناولهما الغداء في الفندق، وفي كل مرة كانت تضحك قائلة:

- ما حاجتك إلى معرفة من أنا وما اسمي؟

في الزاوية قرب دائرة البريد كان ثمة واجهة لمحل تصوير

فوتوغرافي. نظر مليا إلى صورة كبيرة لضابط، يرتدي سترة ذات كتّافتين، جاحظ العينين، ضيق الجبهة، بسالفتين جميلتين جدا، وصدر عريض مرصع بالنياشين والأوسمة ... كم يبدو وحشيا ومرعبا كل ما هو رتيب واعتيادي، عندما يكون القلب مصعوقا، أجل مصعوقا بكل معنى الكلمة (لقد أدرك ذلك الآن)، بضربة شمس مرعبة كهذه، بحب كبير، وبسعادة مفرطة! نظر إلى صورة لزوجين شابين في ثياب العرس: الشاب يرتدي معطفا طويلا وربطة عنق بيضاء بتسريحة منفوشة، وقد وقف نافخا صدره واضعا يده بيد خطيبته في إكليل العرس. ثم نقل بصره إلى صورة لبنت جميلة جريئة، وعلى رأسها قبعة مدرسية مائلة ... أخيرا أحس بحسد مضن لكل هؤلاء المجهولين الذين لا يكابدون ما يكابده من معاناة، ثم راح ينظر إلى الشارع بعينين متوترتين.

- إلى أين يذهب؟ ماذا يفعل؟

كان الشارع خاليا تماما. كانت البيوت كلها متشابهة: بيوت تجار بيضاء بطابقين تحيط بها جنائن كبيرة، وكانت تبدو كأنما غير آهلة بالسكان، فثمة غبار كثيف أبيض يغطي الرصيف، وشمس حارة لاهبة لا معنى لها ولا تسر النفس، وإلى الأمام بدا الشارع صاعدا متحدبا، ثم تداخل، على مد النظر، مع الأفق الرمادي الصافي. ذكره كل ذلك بملامح بلاد الجنوب: سباستبول وكيرتش وأنابا، وكان ذلك مزعجا بشكل لا يطاق. ضيَّق الملازم عينيه ليتحاشى نور الشمس الباهر، وخفض رأسه ناظرا بين قدميه، ثم عاد أدراجه وهو يترنح متعثرا بمهمازيه.

عاد إلى الفندق محطما من التعب وكأنه قد قطع مسيرة هائلة في صحراء تركستان. استجمع ما تبقى لديه من قوى ودخل حجرته الكبيرة الخاوية. كانت الحجرة قد رُتبت فاختفى آخر آثار معذبته، إلا من دبوس شعرها وكان ملقى منسيا على المنضدة.. خلع سترته ونظر إلى نفسه في المرآة: وجه ضابط عادي، رمادي ملفوح بالشمس، بشاربين ضاربين إلى بياض لفحتهما الشمس، وعينين زرقاوين مع بياض ظاهر. كانت تعابير وجهه مختلطة متوترة، وأضفى عليه قميصه الأبيض ذو الياقة الصلبة المنشاة هيئة شاب لكن تعيس فعلا. استلقى على سريره واضعا الحذاء عند طرفه، كانت النوافذ مفتوحة والستائر مسدلة وكان النسيم يحركها قليلا من حين إلى آخر، نافثا إلى الحجرة سخونة السطوح الحديدية المحماة بالشمس وكل عالم الفولجا المشبع بالضوء، لكن المقفر والصامت الآن.

استلقى عاقدا يديه تحت رأسه، محدقا بثبات إلى الأمام ... كزّ على أسنانه، أغمض جفنيه، لكنه أحس بالدموع تتدحرج إلى خديه. أخيرا غفا، وعندما فتح عينيه بدت شمس المساء خلف الستائر بلون البرتقال. سكن الهواء فغدا جو الحجرة خانقا جافا كالفرن. مرت بخاطره ذكرى أمس وصباح اليوم، وبدا كما لو أنها ذكرى عشر سنوات خلت.

نهض متثاقلا، اغتسل على مهل، ورفع الستائر، قرع الجرس وطلب السماور والحساب. شرب الشاي مع الليمون على مهل. بعد ذلك طلب إحضار حوذي وإخراج أمتعته. وعندما جلس في العربة - على مقعدها المحمر الملفوح - نقد الحوذي خمس روبلات

كاملة. قال له الحوذي فرحا وهو يمسك عنان الحصان:
- أعتقد يا سيدي أني أتيت بك إلى هنا ليلا!
عندما انحدرا إلى المحطة كانت السماء متلفعة بليل صيفي أزرق، وعكست صفحة ماء النهر أضواء كثيرة مختلفة الألوان، بينما بدت أضواء أخرى ملتمعة على صواري المركب المتقدم بسرعة.
قال له الحوذي متملقا:
- ها قد أوصلتك في الوقت المحدد تماما.
نقده الملازم خمس روبلات أخرى، تناول البطاقة ودلف إلى المحطة ... كما البارحة كان يصدر عن حواف المركب قرع خفيف، وأحس بدوار بسيط جراء اهتزاز السطح تحت قدميه. بعد ذلك تحرك المركب واستدار قليلا إلى الوراء، فضج الماء الراكد مندفعا إلى الأمام تحت العجلات ... هنا تحسن مزاجه، إذ أحس بالألفة من خلال ازدحام الناس والأضواء وانبعاث روائح المطعم.
بعد ذلك انطلق المركب بسرعة صاعدا في الاتجاه ذاته حاملا إياه، كما حملها معه صباح البارحة.
بدأ نور الغبش الصيفي يتلاشى تدريجيا في الأفق، تمازجت ألوان الغسق مع بريق صفحة النهر الرقراقة المتموجة، وسبحت الأضواء متراجعة إلى أن تبددت في العتمة المحيطة.
جلس الملازم تحت مظلة على سطح المركب، هو يحس أن السن تقدمت به عشر سنوات.

سيد من سان فرانسيسكو

«الويل الويل أيتها المدينة العظيمة بابل القوية!»

سفر الرؤيا

انطلق سيد من سان فرانسيسكو، - لم يتذكر اسمه أحد لا في نابولي، ولا في كابري - في رحلة، مع زوجته وكريمته، إلى العالم القديم، لمدة عامين كاملين، بقصد الترويح عن النفس وحسب. كان على قناعة ثابتة بأن له كامل الحق في الراحة والاستجمام، في سياحة مديدة مريحة، لا بل وفي أكثر من ذلك. كان لمثل هذه القناعة المتشكلة لديه مسوغاتها المنطقية في رأيه: فهو ثري من جهة، ويقوم بأولى خطواته (رغم بلوغه الثامنة والخمسين من العمر)، نحو حياة حقيقية. فقبل هذا الحين لم يعش، بل درج مستغرقا في العمل وعاقدا الآمال دوما على المستقبل. عمل بلا انقطاع، ودونما فتور (ويعرف الصينيون المستخدمون عنده بالآلاف ذلك جيدا)، لكن رأى أخيراً أنه قد كسب كثيرا وبلغ مرتبة من جعلهم، في وقت ما، مثالا يحتذيه، فآثر الخلود إلى الراحة.

كان الوسط الذي ينتمي إليه هذا السيد، أو الناس الذين يشبهونه، قد اعتادوا الانطلاق في رحلة سياحية باتجاه أوروبا والهند ومصر كبداية للاستمتاع بالحياة... وآثر هو أن يفعل كذلك... أراد، طبعا، لقاء سنوات الكدح تلك، أن يكافئ نفسه في المقام الأول، لكنه رغب أيضا أن يرفه زوجته وابنته. كانت زوجته امرأة عادية لا تعطي انطباعا مميزا، بيد أن كل النساء الأمريكيات يعشقن السياحة عموما عندما يدركهن الكبر. أما

بالنسبة إلى ابنته، كفتاة ناضجة، ومعتلة الصحة قليلا، فكان السفر أو السياحة أمرا ضروريا تماما، سواء لما يجلبه من نفع لصحتها، لما يمكن أن يحمل من مصادفات ولقاءات سعيدة، ففي مثل هذه المناسبة قد تجلس خلف طاولة تعاين لوحات جدارية، وبجانبك مليارديرا.

كان البرنامج الذي وضعه السيد من سان فرانسيسكو لرحلته غنيا منوعا... ففي ديسمبر ويناير تطلع إلى الاستمتاع بشمس جنوب إيطاليا وزيارة المعالم والآثار القديمة، بمشاهدة حفلات رقص الترانتيلا(*) وسماع أغاني المغنين الجوالين، وكذلك الاستمتاع بما يشعر به الرجال في مثل سنه على نحو خاص، من توق، وإن يكن مغرضا، إلى الفتيات النابوليات. خطط، كذلك، لحضور كرنفالات في نيس ومونت كارلو اللتين تفد إليهما نخبة المجتمع الراقي ذات العلاقة المباشرة بإعلان الحروب وثبات العروش، وبمظاهر التمدن: مثل ارتداء السموكينج وسباق السيارات والمراكب الشراعية ولعب الروليت والفلرت وقنص الحمام، الذي يطير محلقا فوق مروج من أزهار وورود زمردية، ويهوي على الأرض جماعات وكتلا بيضاء... ونوى، مع حلول شهر مارس، زيارة فلورنسا، ثم روما قبيل الفصح في أسبوع آلام المسيح لحضور صلاة Miserere(**)، كما لحظ في برنامجه زيارة البندقية وباريس ومشاهدة صراع الثيران في إشبيلية، والسباحة في الجزر الإنجليزية، وفي أثينا وفلسطين ومصر، وحتى في

(*) رقصة شعبية إيطالية - المترجم.

(**) صلاة كاثوليكية خاصة تقام في أيام آلام المسيح قبيل عيد الفصح - المترجم.

اليابان في طريق العودة طبعا... وقد سار كل شيء، في البداية، على أفضل ما يرام.

في أواخر شهر نوفمبر دخل المركب مضيق جبل طارق، حيث أبحر معنا في جو سديمي متجمد تارة، أو وسط عواصف ثلجية رطبة تارة أخرى، لكن جرى الإبحار، مع ذلك، بسلام. كان الركاب كثيرين، وكانت السفينة «أتلانتيدا» أشبه ما تكون بفندق ضخم يتوفر على كل وسائل وأسباب الراحة: بار ليلي، حمامات شرقية، وصحيفة محلية خاصة. وسارت الحياة على متنها بانتظام مدروس: يستيقظ الركاب باكرا على صوت بوق يتردد صداه في جنبات الممرات وقت السحر، مع بداية تسلل ضوء النهار ونشر ردائه فوق هذه الصحراء المائية المترامية ذات اللون الأخضر - الرمادي، والغارقة في الضباب، يخلعون على أجسادهم أرديةالنوم الخفيفة، ويشربون القهوة أو الشوكولا أو الكاكاو... بعدها يستحمون في أحواض مرمرية، ويمارسون تمارين رياضية لإثارة الشهية للطعام، وتحسين المزاج، ثم يتجهون، بعد القيام بالتواليت النهاري، لتناول الفطور الأول. في فترة ما قبل الساعة الحادية عشرة جرت العادة أن يستروح المسافرون على ظهر المركب، ويستمتعوا بطراوة وطزاجة هواء المحيط، أو اللعب بـ «الشغلبورد» وغيره من الألعاب من أجل إثارة جديدة للشهية. في الحادية عشرة يحل موعد تناول بعض السندويشات الخفيفة مع حساء الدجاج، ثم مطالعة الصحف بانتظار تقديم الفطور الثاني المغذي والمنوع. تخصص الساعتان التاليتان للنوم أو الاسترخاء؛ ومن أجل ذلك انتشرت على ظهر السفينة الأرائك الخيزرانية التي يمكن أن

يستلقي عليها السياح ملتفين بالأغطية الصوفية، منقلين أبصارهم بين السحب السابحة في السماء، وبين ذؤابات الأمواج المزبدة المتلألئة خلف جدار السفينة. في الساعة الخامسة يقدم شاي ثقيل عطر منعش مع البسكويت، وفي السابعة يعلن البوق بدء أهم فصل في هذا البرنامج اليومي... وهنا ينهض السيد من سان فرانسيسكو، مفعما بالحيوية والنشاط، يفرك يديه متوجها إلى حجرته الفاخرة لارتداء ملابس السهرة.

في الأماسي، كان يتلألأ في طوابق «أتلانتيدا» عدد لا يحصى من العيون المتوهجة بالضوء، ويقوم جيش من الخدم بالعمل في المطابخ والمغاسل وأقبية النبيذ. كان المحيط الهادر خلف جدران السفينة رهيبا حقا، لكن لم يخشه أحد بسبب ثقة المسافرين الوطيدة بسلطة القبطان عليه. فكان رجلا أحمر الشعر، ضخم الجثة على نحو مخيف، يبدو نعسا طوال الوقت، ويشبه في بزته العريضة - ذات الشرائط المذهبة - صنما ضخما، لا يطل على الناس من مقره السري إلا نادرا. كانت الصفارة في مقدمة السفينة ترسل زعيقا جهنميا مخيفا كل دقيقة، لكن لم يكن ذلك الزعيق ليقلق من في مطعمها وباراتها وصالاتها، إذ غالبا ما تطغى عليه أصوات الأوركسترا الرائعة التي كانت تصدح برهافة ومن دون وني في صالة فُرشت بسجاد ذي وبر ناعم، تغمرها الأضواء، مكتظة بنساء حاسرات الصدور، ورجال بفراكات وبزات سموكينج، وبخدم وندل بارعين أنيقي المظهر، اختص أحدهم بتسجيل طلبات الزبائن من النبيذ، وكان يخطر كاللورد الإنجليزي، وقد تدلت سلسلة من عنقه. أضفى السموكينج والياقة المنشأة

شبابا على السيد من سان فرانسيسكو، كان قصيرا جاف العود غير متناسق، وقد برز هنا، جالسا باعتدال وسط ألق الأضواء الزمردية المذهبة وأمامه زجاجة من نبيذ فاخر، وأقداح وكؤوس من أرق الزجاج، وباقة من زنبق نضر. بدت في قسمات وجهه المصفر ملامح منغولية مع شاربين أشيبين مشذبين، وأسنان كبيرة بحشوات عاجية وذهبية لامعة، ورأس متين أصلع، ارتدت زوجته ثيابا فاخرة كذلك، لكن مناسبة لسنها، وكانت، من حيث الشكل، امرأة ضخمة عريضة وهادئة. أما ابنته فخلعت على جسمها ثيابا أكثر تعقيدا، لكن خفيفة شفافة مع براءة واضحة. كانت طويلة ممشوقة القوام ذات شعر جميل مسرح بعناية وذوق، يفوح عطرها من أقراص بنفسجية، وبثور صغيرة وردية اللون قرب الشفتين، وبين الكتفين مظللة بقليل من البودرة.

دام الغداء أكثر من ساعة، أعقبه رقص في صالة الحفلات. كان الرجال، خلال ذلك، ومن ضمنهم السيد من سان فرانسيسكو، يرقصون بنشاط، ويعرجون، في أثناء فواصل للاستراحة، إلى البار المجاور لتدخين السيجار الكوبي واحتساء جرعات من الليكيور، حيث يخدمهم هناك زنوج بدراعات حمراء موشاة بفرو أبيض شبيه ببيض مسلوق نزع عنه قشره. كان المحيط، في تلك الأثناء، يهدر بأمواجه خلف جدران المركب كجبال سوداء، والعواصف تصفر من خلال الأشرعة المتثاقلة فتهتز السفينة بأكملها متجاوزة كل ذلك، فالقة - كما المحراث - الكتل الجبلية الطرية مخلفة إثرها ذيولا من زبد. زعقت الصفارة بصوت كئيب مختنق بالضباب، أشبه بصوت النعي، بينما تجمد الحراس من

البرد والزمهرير وشدة التوتر والانتباه في محارسهم. كان بطن السفينة الغائص في المحيط أشبه ما يكون بقاع الجحيم، تغلي مراجلها العملاقة مطلقة هديرا مكتوما، وهي تزدرد أكواما من الفحم الحجري يلقمها به بشر صاخبون عراة حتى الصدور، قذرون محمرون من وهج اللهب، ويسيل العرق من أجسادهم. أما في البار فكان الناس يجلسون خليي البال، ممددين أرجلهم على مساند الأرائك يكرعون الكونياك والليكيور، سابحين في بحر من الدخان والنشوة... وكانت قاعة الرقص متألقة تسكب الضوء والدفء والغبطة، بينما الراقصون يدورون في رقصة فالس تارة، أو يضم أحدهم الآخر في رقصة تانغو حميمية تارة أخرى... والموسيقى لا تني تصدح بلحن حلو رخيم متكرر... برز بين هذا الحشد اللاهي ثري كبير حليق الذقن طويل أشبه بـ Prealatus(*) يرتدي فراكا من طراز عتيق، وكاتب إسباني شهير، وحسناء عالمية وعاشقان، لاحقتهما عيون الجميع بفضول، ولم يخفيا سعادتهما. كانا يرقصان معا طوال الوقت مع أداء رهيف جذاب...، ولم يدر أحد، باستثناء القبطان، أنهما مستأجران من قبل مستر لويد صاحب السفينة لتمثيل هذا لقاء أجر مجز، وأنهما يبحران منذ زمن بعيد على هذا المركب أو ذاك.

في أثناء الإبحار، في مضيق جبل طارق، أطلت الشمس جذلى، فذكّرت ببواكير الربيع. في ذلك الحين ظهر على متن «أتلانتيدا» مسافر جديد لفت انتباه الآخرين. كان أميرا وولي العهد لإحدى الدول الآسيوية خطر له الطواف حول العالم، وبدا رجلا قصير

(*) مرتبة دينية رفيعة في الكنيسة.

القامة، متخشبا، عريض الوجه، ضيق العينين، بنظارات ذهبية. أثار شارباه المنفوشان، كما شاربا الميت، نفور الناس قليلا، على رغم أنه كان، بوجه عام، لطيفا بسيطا ومتواضعا. مع دخولنا البحر الأبيض المتوسط هبت، من جديد، رياح شتوية... ارتفعت موجة ضخمة بدت، في ضوء الشمس الساطعة والسماء الصافية، ملوّنة كذيل الطاووس، لكنها سرعان ما تبددت أمام قوة هبوب رياح الشمال الباردة المواجهة لها. وفي اليومين التاليين اكفهرت السماء وغطى الضباب الأفق مع اقترابنا من اليابسة، لاحت إسكيا وكابري، كما بدت نابولي بالمنظار المكبر كقطع سكر منثورة عند قدمي جسم ما رمادي أزرق... لجأ كثيرون من السيدات والسادة إلى ارتداء الفرو والستر الشتوية فوق ثيابهم الخفيفة، كما انهمك الخدم الصينيون البسطاء، ذوو السيقان المعوجة والضفائر الطويلة السوداء كالقطران، والأهداب الكثيفة. انهمكوا، صاعدين درج السفينة، في نقل البطانيات والعكازات والحقائب والأشياء الضرورية.

كانت كريمة السيد من سان فرانسيسكو، في تلك الأثناء، واقفة على ظهر السفينة بجانب الأمير الآسيوي الذي شاءت الأقدار السعيدة أن تعرفت عليه مساء البارحة. وها هي تتظاهر بأنها تنظر بجدية إلى الأفق البعيد، إلى حيث يشير لها، شارحا شيئا ما، وراويا في عجلة، لكن بصوت خفيض، إحدى قصصه. بدا هذا الأمير (بقامته القصيرة جدا) ولدا بالمقارنة مع الآخرين، كما كان دميم الخلقة، غريب الشكل بنظارته وقبعته ومعطفه الإنجليزي وشعرات شاربه القليلة النابقة والغليظة كشعر ذيل الحصان،

وبجلده الرقيق الأسمر الصقيل المشدود على وجهه الأملس اللامع. كانت الفتاة تصغي إليه، لكن بدا أنها لا تفهم، لعظيم ارتباكها، ما كان يقوله. فلشدة احتفائها به راح قلبها يخفق بقوة وهي واقفة بجانبه - بجانب هذا الأمير - الذي كان عنده شيء مختلف عن الآخرين: يداه جافتان، لكن تحت جلده النقي يسري دم ملكي عريق، ثيابه أوروبية بسيطة تماما، لكن تنطوي على أناقة وجاذبية خفية. أما السيد من سان فرانسيسكو، المنتعل حذاء ملمعا رمادي اللون مع طماق(*) متصل به حتى ربلة الساق، فكان يسترق النظر إلى حسناء شهيرة واقفة بالقرب منه، شقراء طويلة القامة متناسقة البنيان كحيلة العينين، وفق أحدث الصرعات الباريسية. وكانت، طوال الوقت، تتحدث مع كلبها ممسكة بيدها طرف سلسلة معلقة بحلقة فضية مشدودة إلى عنقه. وحاولت ابنته، مع بعض الحرج البادي عليها، التظاهر بأنها لا تراه.

كان السيد سخيا طوال الطريق بما فيه الكفاية، ولذا كان واثقا من صدق اهتمام كل من قام على إطعامه وسقايته، وعن الخدم الذين انتظروا مجرد إشارة لتلبية طلباته والسهر على راحته ونظافته، لتناول أشيائه واستدعاء الحمالين لنقل صناديق أمتعته إلى الفنادق. هذا ما حصل في أثناء الإبحار، وهذا ما ينبغي أن يحصل في نابولي. اقتربت السفينة من اليابسة وها هي نابولي. خرج الموسيقيون واحتشدوا على ظهر المركب بآلاتهم الموسيقية وأبواقهم النحاسية، وسرعان ما دوت المارشات الأمريكية الحماسية. برز القبطان العملاق كإله وثني رحيم أمام جمهور

(*) قماش أو جلد يغطي الساق من الركبة إلى الكاحل - المراجع.

المسافرين ملوّحا بيده. اعتقد السيد من سان فرانسيسكو (وشاركه الآخرون الرأي)، أن كل هذا الطقس الاحتفالي إنما قام لتهنئته بسلامة الوصول. وعندما دخلت «أتلانتيدا» الميناء أخيرا وألقت مراسيها مسندة جبلها المتعدد الطوابق المكتظ بالناس إلى الرصيف، ضجت السلالم، واندفع باتجاه السيد حشد من خدم الميناء، عملاء الفنادق، المرتدين معاطف ذات شرائط براقة، وأصناف شتى من الوكلاء والمرتزقة والغلمان يقدمون بطاقات ملونة ويعرضون خدماتهم.

أشاح السيد بوجهه عن هذا الحشد مبتسما واتجه نحو سيارة الفندق، الذي سيحل فيه الأمير أيضا، متلفظا عبر أسنانه بالإنجليزية تارة، وبالإيطالية تارة أخرى:

- Go away!(*) Via! (**)

في نابولي سارت الحياة حسب نظام مقرر سلفا. صباحا: تناول الفطور في مطعم معتم قليلا، وثمة سماء غائمة لا تبشر بطقس حسن، وحشد من الأدلاء السياحيين في بهو الفندق. يستقبل السياح بعد ذلك الابتسامات الأولى لشمس دافئة وردية اللون، وإطلالة من شرفة عالية على «فيزوف»، وعلى قدمي الخليج المتلفع بضباب الصباح ومويجاته الزمردية التي لها لون الفضة، على ظلال كابري البادية في الأفق، على الحمير التي تخب جارّة طنابرها في الأسفل، وعلى أرتال الجنود السائرين بهمة ونشاط إلى مكان ما على إيقاع الموسيقى. بعدها يستقبل السياح

(*) إبتعد (بالإنجليزية).

(**) ابتعد (بالإيطالية).

السيارات للطواف عبر شوارع وأزقة المدينة الرمادية الضيقة بين البيوت العالية ذات النوافذ الكثيرة، ثم زيارة المتاحف النظيفة النيرة اللطيفة والمملة في آن معا، أو زيارة الكنائس الباردة العابقة برائحة الشموع المتشابهة في كل شيء: الواجهة المهيبة والمدخل الذي تتدلى دونه ستارة جلدية سميكة، الفراغ الهائل والصمت المطبق والتماعات الأضواء الحمراء الخافتة للشمعدان السباعي في العمق عند المذبح، الذي خلعت عليه مخرمات ومطرزات، وعجوز وحيدة تجلس على أحد المقاعد الخشبية في الصالة ذات البلاط الأملس، ولوحة «النزول عن الصليب» الشهيرة لرسام ما. في الساعة الواحدة يحين موعد تناول الفطور الثاني على جبل سان مارتينو، الذي يتوافد إليه عند منتصف النهار كثيرون من أبناء الطبقة الراقية. وفي هذا الموقع كاد يغمى، ذات مرة، على ابنة السيد من سان فرانسيسكو، إذ خيل إليها أن الأمير جالس في الصالة، في حين كتبت الصحف أنه في روما. في الخامسة موعد تناول الشاي في الفندق، في صالة أنيقة دافئة مفروشة بالسجاد مع لهب أحمر منبعث من مواقدها، ثم الاستعداد لتناول طعام الغداء.

ما إن يدوي صوت الناقوس الضخم في طوابق الفندق حتى تنعكس أرتال النساء عاريات الصدور في المرايا الجانبية، ويسمع حفيف الحرير على السلالم. ومن جديد تشرع أبواب المطعم الواسعة لاستقبال الضيوف، فيبرز الموسيقيون بستراتهم الحمراء على المنصة، ويحتشد الخدم حول رئيس الندل وهو يسكب في الصحون حساء ورديا كثيفا... ومن جديد كان الغداء حافلا بشتى

أصناف الطعام والنبيذ والمياه المعدنية والحلوى والفواكه. في الحادية عشرة مساء توزع عبوات مطاطية مليئة بماء ساخن لتدفئة بطون النزلاء.

أطل ديسمبر هذا العام مخيبا للآمال، وعندما يجري الحديث مع وكلاء الفنادق بخصوص الطقس الرديء السائد يكتفون بهز أكتافهم معتذرين مغمغمين بكلام فحواه أنهم لا يتذكرون عاما كهذا، علما أنها ليست المرة الأولى التي يغمغمون بمثل هذا الكلام ويدعون بأن «أمرا ما فظيعا يجري في العالم كله»: في الريفيرا هطلت أمطار غزيرة وهبت عواصف، في أثينا تساقط الثلج، وإتنا مغطاة بالثلوج أيضا وتكثر فيها البروق ليلا، وفي باليرمو هرب السياح من وطأة الصقيع... شمس الصباح تخدع الناس كل يوم: في منتصف النهار تتلبد السماء بالغيوم ويبدأ هطل المطر ويبرد الجو. في مثل هذا الطقس تلتمع أشجار النخيل المنتصبة عند مدخل الفندق كالصفيح، تبدو المدينة أقذر، وأضيق، والمتاحف أكثر رتابة، وأعقاب سجائر الحوذيين المنتفخين؛ بستراتهم المطاطية الخافقة مع الريح كالأجنحة، كريهة الرائحة إلى حد لا يطاق، كما يبدو وقع سياطهم على أكفال أحصنتهم الهزيلة الضامرة زائفا، وأحذية منظفي خطوط الترام قذرة منفرة، والنساء المخوِّضات في الوحل تحت المطر برؤوس سوداء حاسرات، قصيرات السيقان على نحو مشوه. هذا إذا صرفنا النظر عن الرطوبة وعفونة رائحة السمك المطروح عند شاطئ البحر. صار السيد والسيدة من سان فرانسيسكو يتشاجران كل صباح. فابنتهما إما شاحبة تشكو من

وجع رأسها، وإما نشطة منطلقة معجبة بكل من تصادفه. وفي هذه الحالة تبدو لطيفة رائعة. كانت رائعة تلك الأحاسيس والمشاعر الرقيقة والمعقدة التي راحت تنتابها إثر لقائها ذلك الإنسان غير الوسيم ذي الدم الغريب في العروق... إذ قد لا يكون مهما في نهاية الأمر ما الذي يثير جنان الأنثى، المال أم المجد أم الشهرة أم النسب العريق؟

أكد الجميع أن الأحوال في سورينتو وكابري مختلفة تماما... فالجو هناك مشمس دافئ، والليمون يزهر، وأخلاق الناس أفضل، والنبيذ أنقى وأطيب. وهكذا قررت العائلة التوجه مع كل أمتعتها للإقامة في سورينتو، لكن بعد التعرف على معالم كابري والطواف على آثارها وأطلالها القديمة، وزيارة مغاورها البحرية وسماع ألحان عازفي القرب الإبروتسيين الذين يتسكعون في الجزيرة طوال شهر قبل عيد الفصح، منشدين المدائح لمريم العذراء.

في يوم الرحيل الذي كان تذكاريا بالنسبة إلى الأسرة القادمة من سان فرانسيسكو، لم تطل الشمس حتى في الصباح. غطى ضباب كثيف منطقة فيزوف(*) كليا وأرخى سدوله على صفحة البحر الرقراقة. أما كابري فلم تكن مرئية أبدا، كأن لا وجود لها على الإطلاق في هذا الكون... كان المركب الصغير المتجه إليها يتأرجح من جانب إلى آخر، حتى أن أفراد الأسرة استلقوا مسمرين على الأرائك في قمرة بائسة للبحارة، وقد غطوا أقدامهم بالبطانيات وأغمضوا أعينهم خوفا من الدوار. عانت السيدة، حسب اعتقادها، أكثر من سواها، حتى خيل إليها أنها ستموت. لكن

(*) أي منطقة بركان فيزوف الشهير - المترجم.

الوصيفة التي لبثت سنوات طويلة، ويوما إثر يوم تتأرجح مع المراكب البحرية مع الموج في الحر والقر دونما شكوى، كانت تهرع إليها بوعاء مخفية ابتسامتها. أما الآنسة فكانت شاحبة الوجه واحتفظت بقطعة ليمون بين أسنانها. وأما السيد الذي ظل مستلقيا على ظهره متدثرا بمعطف واسع ومرتديا قبعة عريضة، فلم يفتح فمه طوال الطريق، وكان وجهه ممتقعا، وشاربه أبيض، مع شكوى من ألم في الرأس. لقد أسرف في الأماسي الأخيرة، بسبب الطقس الرديء، في شرب الكحول، وفي التمتع «باللوحات الحية»، في بعض الزوايا المنعزلة.

قرعت حبال المطر زجاج النوافذ وتسرب الماء منها إلى الأرائك، وعصفت الرياح الشديدة بالصواري فتأرجح الزورق - مع حركة الموج - من جانب إلى آخر، وتدحرج شيء ما محدثا ضجة قوية. في محطتي كستلامار وسورينتو غدا الأمر أهون. لكن هنا أيضا كانت الرياح شديدة والبحر هائجا. فكنت ترى اليابسة بكل ما تحتويه من جروف وجنائن وأشجار وفنادق وردية وبيضاء، وجبال خضراء دخنة متغضنة، كأنما تتطاير خلف النافذة إلى أسفل وإلى أعلى كما في أرجوحة. كانت القوارب ترتطم بجدران الزورق فيصيح ركاب الدرجة الثالثة هلعين مذعورين، وتميز بين أصواتهم المختلطة زعيق مختنق لطفل، فيما الريح الرطبة تخترق الأبواب. وقبالة الزورق كان ثمة صبي ألثغ يقف على قارب متقلقل رافعا علم فندق Royal، لا يني يزعق بأعلى صوته بالإيطالية داعيا المسافرين إلى الفندق المذكور.

أما السيد من سان فرانسيسكو، الذي كان يحس نفسه - وكما ينبغي له ذلك - عجوزا تماما، فراح يفكر بأسى وحنق بكل هذه الفنادق مثل Royal، Splendid، وExcelsior.... وبهؤلاء الصبية والناس الجشعين الذين تفوح منهم رائحة الثوم، الذين يسمون بالإيطاليين.

في إحدى المرات في أثناء التوقف فتح عينيه ونهض قليلا عن أريكته، فرأى منحدرا صخريا بدت في أسفله كومة بيوت حجرية بائسة علاها عفن أخضر تزاحمت لصق الماء، قرب زوارق، قرب خرق مبعثرة، وأوعية ونفايات معدنية فارغة، فتذكر أن هذه هي إيطاليا الحقيقية التي قدم إليها للترويح عن النفس... وهنا أحس بالقنوط.

أخيرا لاحت الجزيرة سوداء في الغبش تتخللها من الأسفل، كما الثقوب، أضواء حمراء. هدأت الريح وتطامن الجو، وعلى صفحة الماء الراكد، الذي عكس بريق بقع زيتية سوداء، انعكست كذلك أشعة فوانيس المحطة منسابة ملتوية كأفاعٍ ذهبية. ألقيت المرساة في الماء بصخب، وتعالى صياح وصراخ البحارة الغاضب... اعتدل مزاج المسافرين، ضوأت القمرة التي افترشها السيد من سان فرانسيسكو مع عائلته، وشعروا بالرغبة في الأكل والشرب والتدخين والحركة... بعد عشر دقائق نزلت العائلة إلى قارب صغير، وبعد خمس عشرة دقيقة وطئت أقدامهم حجارة الشاطئ، ثم استقلوا عربة صغيرة مضاءة اتجهت بهم إلى الأعلى عبر مرقى بين أوتاد مزارع الكرمة وسواتر حجرية نصف متهدمة، وأشجار البرتقال الحرشاء المغطاة بستائر من القش ووسط بريق ثمار

البرتقال وأوراقه الصقيلة اللماعة المتدلية إلى أسفل بمحاذاة نوافذ العربة المفتوحة... يالعبق الأرض في إيطاليا بعد المطر! ويالهذه الرائحة الخاصة التي تميز كل جزيرة فيها!

كانت جزيرة كابري رطبة معتمة في ذلك المساء، لكنها - لدقيقة - انتعشت وضوأت في أكثر من مكان. في محطة العربات الكهربائية عند أعلى الجبل احتشد جمع من الناس وقع على عاتقهم حسن استقبال السيد القادم من سان فرانسيسكو. وكان ثمة مسافرون آخرون، لكنهم لا يستحقون الاهتمام، بضعة مسافرين روس قدموا إلى كابري سيئي الهندام شاردين بنظارات ولحى، وياقات مرفوعة لمعاطف قديمة، ومجموعة من الفتيان الألمان مدوري الرؤوس بثيابهم الوطنية وأكياس من الخيش على أكتافهم، لا يحتاجون إلى خدمات أحد، إذ ليسوا من السخاء لإنفاق أي شيء، كما يحسون أنفسهم كما في بيوتهم. نأى السيد من سان فرانسيسكو بنفسه عن هؤلاء وأولئك مما ميزه في الحال عن سواه، فساعدوه وأفراد أسرته على الخروج وركضوا أمامه مشيرين إلى الطريق. تحلق حوله من جديد مجموعة صبية ودزينة من النساء الكابريات اللواتي يحملن على رؤوسهن حقائب وصناديق السياح المحترمين ويقرعن بقباقيبهن أرض الساحة التي تحولت إلى ما يشبه منصة مسرح أوبرا، وكانت العربة تتأرجح فوقها بسبب الرياح الرطبة، كما بدأت مجموعة من الصبية تصفر وتقفز وتتأرجح، ومر بينهم السيد عابرا بوابة قديمة من العصور الوسطى تحيط بها كومة بيوت متلاصقة باتجاه شارع صغير يفضي إلى مدخل

فندق متألق بالضياء، كان على الجانب الأيسر للشارع صف من أشجار النخيل الهرمة تدلت سعفها على أسطحة البيوت، ولاحت عند آخر وأعلى الشارع نجوم زرقاء في سماء سوداء.

من جديد، بدا كأنما انتعشت، على شرف هذه الأسرة القادمة من سان فرانسيسكو، هذه المدينة الحجرية الرطبة القائمة على جزيرة صخرية في البحر الأبيض المتوسط. كما بدا كأن هذه الأسرة هي التي جعلت من صاحب الفندق إنسانا سعيدا مغتبطا، وكأن الناقوس الصيني أيضا الذي يتردد رنينه الآن في الطوابق داعيا إلى الغداء، إنما انتظر أفراد هذه الأسرة - تحديدا - التي دخلت للتو ردهة الفندق.

استقبل صاحب الفندق - وكان شابا أنيقا لبقا - الضيوف وانحنى محييا باحترام وتهذيب. للحظة أحس السيد من سان فرانسيسكو بالدهشة عندما نظر إليه: تذكر فجأة أنه رأى في منامه في الليلة الماضية، ضمن كل الرؤى السوداوية الغائمة التي انتابته، هذا الجنتلمان أو شخصا ما مثله تماما، وفي ثياب الخدمة ذاتها وبشعره المسرّح الصقيل كالمرآة.

كاد يتوقف لشدة دهشته من هذا التخاطر العجيب. لكن بما أنه لم يبق لديه، منذ أمد بعيد، مثقال ذرة من تلك الأحاسيس الصوفية، فقد فترت دهشته في الحال. حدث زوجته وابنته، مازحا، بهذا التوافق الغريب بين الحلم والواقع، وهم يعبرون ممر الفندق، لكن الابنة التفتت إليه في تلك الدقيقة قلقة متضايقة، إذ انقبض قلبها فجأة من الكآبة والإحساس بوحدة مريعة في هذه الجزيرة الغريبة المعتمة.

غادرت للتو كابري شخصية رفيعة المقام - ريس السابع عشر. وهكذا خصصوا للضيوف من سان فرانسيسكو ذلك الجناح الذي كان يقيم فيه، وفرزوا لخدمتهم أجمل وأمهر وصيفة، وهي فتاة بلجيكية ذات خصر ناحل وصلب بفعل المشد الذي زنر وسطها، وبقبعة منشاة على هيئة تاج صغير مسنن، وأفضل خادم، وهو شاب صقلي أسود بعينين براقتين، وأنشط عمال الممر - لويجي القصير البدين الذي عمل خلال حياته في كثير من مثل هذه الأمكنة. بعد دقيقة قرع الفرنسي كبير الخدم باب غرفة السيد بهدوء ليسأل فيما إذا كان الضيوف الجدد يرغبون في تناول الغذاء، ولكي يحيطهم علما في حال تلقيه جوابا إيجابيا (وهذا بالمناسبة ليس موضوع شك) أن وجبة اليوم تتضمن محارا وروستو عجل وهليون وطير الفري وغيرها... كانت الأرض ما تزال تدور تحت قدمي السيد إثر معاناته البارحة من ذلك الزورق الإيطالي البائس. لذلك وقبل أن يجيب سائله خطا متمهلا وأغلق الباب بنفسه (وإن يكن ذلك في غير عادته)، إذ تناهت عبره رائحة المطبخ البعيد والحشائش الرطبة في الحديقة. بعدها التفت إلى الخادم الفرنسي قائلا بتأنٍ ووضوح، إنهم سيتناولون الغذاء، وإن طاولتهم ينبغي أن تكون بعيدة عن المدخل، في عمق الصالة، وإنهم يفضلون احتساء النبيذ المحلي. كان كبير الخدم يومئ برأسه إثر كل كلمة من كلماته، ويجيب بنبرات مختلفة تحمل جميعها معنى واحدا يؤكد مشروعية رغبات السيد، وأن كل شيء سينفذ بدقة. في النهاية أحنى رأسه وسأل بتهذيب:

- أهذا كل شيء سيدي؟

وعندما تلقى Yes (نعم)، أضاف أنه سيجري اليوم في البهو رقص ترانتيلا بأداء كارميلا وجوزيبه الشهيرين في إيطاليا كلها وفي «العالم السياحي بأسره»..

أجاب السيد من سان فرانسيسكو بلهجة لا تحمل أي تعبير:

- رأيت ذلك في بطاقات الدعوة، وهل جوزيبه هذا زوجها؟

- ابن عمها يا سيدي.

وبعد أن فكر السيد قليلا، من دون أن يقول شيئا، صرفه بإيماءة من رأسه.

بعد ذلك بدأ السيد يتصرف كأنما يستعد لعرس: أشعل مصابيح الكهرباء في كل مكان مالئا كل المرايا بانعكاسات الضوء وبريق الأثاث وصناديق الأمتعة المفتوحة، ثم شرع يحلق ذقنه ويغتسل قارعا الجرس كل دقيقة. وفي الوقت ذاته كان رنين أجراس أخرى عجول تقاطعه، مالئة الممر بالرنين آتية من غرفتي زوجته وابنته. كان لويجي بصدارته الحمراء وبخفة تسم الكثيرين من البدينين يرتكس كالنابض إثر رنين الأجراس، متظاهرا بالتأفف، ومضحكا - بذلك - الوصيفات الراكضات بسطولهن بالقرب منه حتى تدمع عيونهن، وبعد أن يقرع الباب بأزرار كمه مفتعلا الارتباك حتى البلاهة يسأل باحترام:

- Ha Sonato, Signore?(*)

فيأتيه صوت أجش متمهل من خلف الباب يشي بالانزعاج:

- Yes, come in...(**)

(*) هل قرعتم الجرس يا سيدي؟

(**) (بالإيطالية).

بمَ كان يحس وبم كان يفكر السيد من سان فرانسيسكو في هذا المساء المهم بالنسبة إليه؟ إنه، ككل من عانى دوار البحر، يرغب جدا في تناول الطعام ويحلم بتذوق أول ملعقة حساء وأول جرعة نبيذ، حتى أنه قام بزينته المعتادة بشيء من التوتر لم يترك لديه أي وقت للتفكير بشيء آخر.

فبعد أن حلق واغتسل وثبت بعض أسنانه الاصطناعية في مكانها، تناول فرشاة الشعر وسرح شعرات رأسه القليلة البيضاء، ووزعها على جمجمته الداكنة المصفرة، شد على جذعه المتين وخصره الممتلئ، بسبب التغذية الجيدة المدروسة، صدارة حريرية سكرية اللون، وخلع على قدميه الجافتين المسطحتين جوربين حريريين أسودين وانتعل حذاء خفيفا للسهرة. بعد ذلك انشغل ببنطاله الأسود فشد وسوّى حمالته، ثم بقميصه الأبيض، فربط أولا إسوارتي الكمّين اللماعتين، ثم انهمك بعصبية في التفتيش عن الزر العلوي تحت الياقة الضيقة وفي إدخاله في العروة، ولم يتمكن من ذلك إلا بعد شد وتوتر، وبعد أن وخز الزر الصلب نهاية أصابعه وسحج جلد رقبته المترهل... جلس متعبا أمام المرآة الكبيرة ليلتقط أنفاسه:

- شيء فظيع!... غمغم خافضا رأسه إلى أسفل غير محاول أن يعي ما هو هذا الشيء الفظيع، أو أن يفكر به، ثم نظر! إلى عقد أصابعه وإلى أظافره المحدودبة اللوزية اللون وكرر القول بثقة:

- شيء فظيع!

وهنا دوى الناقوس بشدة مرة ثانية، وتردد صداه، كما في معبد وثني، في جنبات الفندق، فنهض السيد من مكانه بعجلة شادا

رابطة عنقه أكثر على الياقة والصدارة المفتوحة على البطن، ارتدى السموكينج وعدل وضع كميه، ثم نظر إلى نفسه مرة أخرى في المرآة مفكرا... هذه الكارميلا السمراء ذات العينين اللعوبين تشبه خلاسية في ثياب صارخة الألوان، يغلب فيها اللون البرتقالي... لا شك في أنها ترقص بشكل رائع... خرج من غرفته منتعشا، ودلف ماشيا على السجادة إلى الغرفة المجاورة، غرفة زوجته، وسأل بصوت عالٍ عما إذا كانت جاهزة، فأجابه صوت أنثوي فرح رنان من خلف الباب:

- بعد خمس دقائق!

- ممتاز.

سار على مهل عبر الممرات وعلى السلالم المفروشة بالسجاد الأحمر باحثا عن قاعة المطالعة. كان الخدم يلتصقون بالحائط مفسحين له الطريق فيسير غير مكترث بهم. وكان ثمة عجوز متأخرة عن الغذاء محدودبة الظهر لها شعر حليبي، لكنها عارية الصدر وترتدي تنورة حريرية زاهية اللون، مسرعة أمامه تمشي مشية مضحكة أشبه بمشية بالدجاجة، فسبقها من دون جهد. توقف خلف الأبواب الزجاجية للمطعم، حيث اجتمع النزلاء وباشروا غداءهم، أمام طاولة تبعثرت عليها علب السيجار وسجائر مصرية. تناول علبة كبيرة وألقى على الطاولة ثلاث ليرات. ألقى نظرة خاطفة عبر نافذة الشرفة الشتوية المفتوحة، فهب عليه نسيم منعش ولاحت أمامه ذوائب نخلة معمرة نشرت سعفها الماردة بين النجوم، وتناهى إلى سمعه هدير البحر الرتيب. لم يكن في قاعة المطالعة الواسعة الهادئة، المضاءة فوق المناضد

فحسب، سوى رجل ألماني أشيب يشبه إبسن(*) بنظارات فضية مستديرة، يقلب الصحف واقفا بعينين مشدوهتين مجنونتين. نظر السيد من سان فرانسيسكو إليه ببرود واقتعد أريكة جلدية في الزاوية قرب مصباح يعلوه غطاء أخضر. تناول نظارة الأنف الخاصة بالقراءة، ونفض رأسه متبرما من ضيق ياقته، ثم دفن وجهه في الجريدة. مر بعينيه سريعا على عناوين بعض المقالات، قرأ بضعة أسطر عن حرب البلقان التي لا تهدأ، وبحركة عادية قلب صفحة الجريدة. فجأة ومضت الأسطر أمام عينيه ببريق لم يألفه من قبل، زاغ بصره، توترت عنقه، جحظت عيناه وسقطت النظارة عن أنفه... اندفع إلى الأمام يريد استنشاق الهواء شاخرا بقوة، فارتخى فكه الأسفل مضيئا كل فمه بحشوات الأسنان الذهبية، هوى رأسه على كتفه، ونفش صدر قميصه كالصندوق أخيرا سقط على الأرض وصار يزحف متلويا متشنجا داعكا السجادة بكعبيه، وكأنه يصارع بيأس أحدا ما.

لو لم يكن ذلك الرجل الألماني في القاعة لتمكن القيمون على الفندق من تسوية الأمر بسرعة وحذق، وإخفاء هذه الحادثة الفظيعة، كأن لم تكن، بواسطة الخدم الذين يمكن أن يحملوه حالا من رأسه وقدميه منسحبين من الأبواب الخلفية، من دون أن يدري أحد. لكن الألماني اندفع من قاعة المطالعة صائحا مرعبا كل من في الفندق والمطعم. كثيرون تركوا طعامهم وركضوا شاحبين قالبين الكراسي في طريقهم إلى القاعة، وعلى لسان كل منهم سؤال «ماذا، ماذا حدث؟»... لم يجد أحد جوابا

(*) كاتب مسرحي نرويجي شهير - المترجم.

أو يعِ شيئا؛ إذ الناس مازالوا في دهش ولا يريدون الاقتناع أنهم أمام حالة موت. كان صاحب الفندق ينتقل من نزيل إلى آخر محاولا إيقاف الراكضين وتهدئتهم بتأكيدات سريعة على أن ما حدث أمر تافه وحالة إغماء بسيطة انتابت سيدا من سان فرانسيسكو... لكن لم يصغ إليه أحد، فكثيرون رأوا كيف خلع عمال الممر رابطة عنق هذا السيد، صدارته وبزته السموكينج المدعوكة، بل وحتى حذاءه وجوربيه الحريريين الأسودين عن قدميه المسطحتين. وكان قلبه ما يزال يخفق. لقد صارع وبإصرار الموت الذي هبط عليه بغتة وبفظاظة، محاولا عدم الاستسلام له. حرك رأسه وشخر كالمذبوح، وغارت عيناه كالسكران... عندما حملوه ووضعوه على السرير في الغرفة رقم ٤٣ - أسوأ وأرطب وأبرد غرفة في آخر ممر الطابق السفلي - هرعت ابنته راكضة إليه شعثاء بشعر منفوش وصدر شبه عارٍ مرفوع بمشد، وتلتها زوجته الضخمة الثقيلة (كانت في كامل أناقتها استعدادا لتناول الغداء) وقد تكور فمها وانعقد لسانها من الرعب... لكنه كان قد كف عن تحريك رأسه.

بعد ربع ساعة عادت الأمور إلى نصابها في الفندق. لكن الأمسية عطلت تماما. عاد بعض النزلاء إلى المطعم وأكملوا غداءهم، لكن واجمين، وبوجوه حزينة، فيما كان صاحب الفندق يتنقل بينهم جميعا، يقترب من هذا وذاك بانزعاج ولياقة واضحة، هازا كتفيه شاعرا بنفسه مذنبا من غير ذنب اقترفه، ومؤكدا للجميع أنه يدرك كم هو «مؤسف هذا الحدث»، ومتعهدا «باتخاذ كل التدابير المتعلقة به» لتسوية كل الآثار السلبية

الناجمة عن هذا الحدث المؤسف. اقتضى الموقف إلغاء حفلة الترانتيلا هذا المساء وإطفاء الأضواء الزائدة. انصرف معظم النزلاء إلى مشرب البيرة، وعم الهدوء والسكينة بحيث صارت دقات الساعة في ردهة الاستقبال مسموعة بوضوح. إذ لم يكن ثمة من جلبة سوى غمغمة ببغاء كان يتحرك في قفصه قبيل النوم، محاولا أن يغفو ويحك رأسه بمخلبه.

في تلك الأثناء كان السيد من سان فرانسيسكو راقدا على سرير حديدي رخيص، تحت بطانيات صوفية خشنة وضوء قنديل معلق في السقف يسقط عليه، وعلى جبينه البارد المبتل كيس مطاطي مليء بماء مثلج. كان وجهه الميت المزرق قد بدأ يبرد تدريجيا، والغرغرة المكتومة المنبعثة من فمه المفتوح المضاء بلمعان الذهب قد ضعفت. إن من كان يغرغر لم يعد موجودا الآن، لم يعد السيد من سان فرانسيسكو في عداد الأحياء. كانت زوجته وابنته والطبيب والخادم متحلقين حوله ينظرون إليه. فجأة حدث ما كانوا يتوقعونه ويخشونه: انقطعت الغرغرة وببطء... زحف الشحوب على وجه الميت، أمام بصر الجميع، وبدأت قسماته تدق وتضيء.

دخل صاحب الفندق، فقال له الطبيب همسا: «Gia e morto» (*).

هز صاحب الفندق كتفيه بعدم اكتراث. سالت الدموع على خد الزوجة بهدوء، ثم اقتربت منه وقالت بارتباك: إنه يجدر نقل المرحوم الآن إلى غرفته. فأسرع صاحب الفندق معترضا ومصححا من دون أدنى لطف:

(*) لقد مات (بالإيطالية) - المترجم.

- أوه، كلا يا مدام...

قال ذلك بالفرنسية، وليس بالإنجليزية، فلم يعد يهتم بذلك المبلغ التافه الذي يمكن أن يضيفه إلى صندوقه هؤلاء القادمون من سان فرانسيسكو.

- هذا غير ممكن أبدا يا مدام.

وأضاف موضحا أنه يثمن عاليا ذلك الجناح، لكن إذا ما نفذ طلبها فإن كابري كلها ستصبح على علم بذلك، وأن السياح سيتجنبون النزول في الجناح ذاته.

لبثت الابنة طوال الوقت تنظر مذهولة إلى أبيها، ثم جلست على الكرسي وشرعت تنتحب واضعة منديلا على فمها. أما الزوجة فقد احمر وجهها وانتفخ بعد أن جففت دموعها. رفعت صوتها أكثر، متكلمة بلغتها، مصرة على طلبها، وغير مصدقة أن زوجها قد فقد بهذه السرعة كل تقدير واحترام. قاطعها صاحب الفندق برصانة متأدبة: إن كان لا يعجبك نظام فندقنا يا مدام فلن أمانع في ذهابك، وأعلن بثبات أن الجثة يجب أن تنقل مع طلوع الفجر، وأن الشرطة قد أحيطت علما بالحادث، وسيحضر ممثلها الآن لاستكمال الإجراءات الشكلية اللازمة... هنا سألته السيدة: هل يمكن تأمين تابوت موتى جاهز وإن يكن بسيطا؟ للأسف هذا غير ممكن بأي حال من الأحوال، كما يستحيل صنعه في فترة قصيرة كهذه. سنضطر لإيجاد حل آخر... المطعم يستورد ماء الصودا الإنجليزية في صناديق خشبية كبيرة وطويلة... ويمكن اتخاذ أحد هذه الصناديق كتابوت بعد نزع الحواجز الداخلية الفاصلة بين العبوات...

نام الفندق كله ليلا... وفي الغرفة رقم ٤٣ فتحت النافذة المطلة على زاوية الحديقة وعلى شجرة موز هزيلة برزت خلف سور حجري عال. اطفأ الخدم النور في الغرفة، رتجوا الباب وذهبوا. بقي الميت وحيدا وسط الظلمة والنجوم ترقبه من السماء، وصوت جندب في السور يتردد بلا مبالاة حزينة... في الدهليز المضاء جلست، عند إفريز إحدى النوافذ، وصيفتان تهمسان بشيء ما بينما أقبل نحوهما لويجي، منتعلا خفيه، حاملا كومة من الثياب:

- Pronto(*)؟ همس بصوت رنان مشيرا بعينيه إلى الباب الرهيب في آخر الممر. وأضاف ملوحا بيده الطليقة بخفة إلى الاتجاه ذاته.

- Partenza(**)، ثم زعق بصوت خفيض كأنه يودع قطارا مغادرا مطلقا الهتافات التي يطلقها الإيطاليون في المحطات عندما ينطلق القطار. أما الوصيفتان فقد هوتا برأسيهما، إحداهما على كتف الأخرى، كاتمتين ضحكات حبيسة.

بعد ذلك ركض قافزا بخلسة إلى الباب وقرعه برفق مائلا برأسه على كتفه، بخبث، وسأل بوقار مصطنع وبصوت خفيض:

- Ha Sonato, Signore?(***)

ثم أجاب بنفسه على السؤال ضاغطا على حنجرته، ماطا فكه السفلي بسخرية حزينة، وكأنما الصوت آت من خلف الباب:

- Yes, come in........(****)

مع طلوع الفجر عندما ابيض العالم خلف نافذة الغرفة رقم ٤٣، وحركت الريح الرطبة الأوراق المهترئة بشجرة الموز وارتفعت سماء

(*) جاهز؟ (بالإيطالية).

(**) انطلاق! (بالإيطالية).

(***) هل قرعتم الجرس يا سيدي؟

(****) نعم، ادخل.

الصباح الزرقاء فوق جزيرة كابري مقابل الشمس وذهّبت قمة مونت سوليارد، وعندما خرج الحجارون إلى عملهم لتسوية طرق الجزيرة أمام السياح، أحضر إلى الغرفة رقم ٤٣ صندوق ضخم طويل من صناديق ماء الصودا. وسرعان ما أحس موظف الاستقبال بثقله عندما رفعه إلى ركبته لوضعه في عربة يجرها حصان واحد عبر الطريق البيضاء الملتوية في سفوح ومنحدرات كابري، وبين السواتر الحجرية وحواكير الكرمة، نزولا حتى شاطئ البحر. كان الحوذي المتثاقل الأحمر العينين اللابس معطفا بكمين قصيرين ثملا بعض الشيء، إذ قضى الليلة الماضية بطولها يكرع الخمر في الحانة ويلعب النرد... لبث هذا الحوذي، طوال الطريق، يسوط حصانه القوي المزركش على الطريقة الصقلية، والذي كان يرن بجلاجل شتى معلقة على لجامه المزين بطرز ملونة وعلى أطراف السراج النحاسي ذي الريش الغليظ المتدلي من لبدته المقصوصة.

كان الحوذي صامتا ترهقه آثام الليلة الماضية والخسارة التي تكبدها في اللعب حتى آخر قرش في جيبه. لكنه انتعش مع هواء الصباح البحري المنعش، فطارت السكرة وعاد متطامنا خلي البال، كما عزى نفسه بالتعويض المفاجئ الذي حظي به من سيد ما من سان فرانسيسكو يهز رأسه الميت الآن في الصندوق المركون خلفه. كان المركب الصغير يقبع في الميناء وسط الزرقة الساطعة لخليج نابولي، ويرسل صفارته الأخيرة التي يتردد صداها في جنبات الجزيرة. وفي هذا الجو الهادئ الساكن كان كل منعطف وكل قمة وكل حجر مرئيا بوضوح من جميع الأمكنة. لحق موظف استقبال الفندق قرب مرسى السفينة بزميله الآخر الذي كان قد انطلق في

سـيـارة أقلت زوجـة الميت وابنتـه الشـاحـبـتـين الذاويتين من البكاء وأرق الليـل. وبعـد عشـر دقـائق هدر صـوت المركب من جـديد في الماء، وبدأ طريقـه عـائدا إلى سـورينتـو وكسـتـلامـار آخذا من كـابري - وإلى الأبد - تلك الأسـرة القـادمـة من سـان فـرانسـيسكو... ومن جديد شمل الجزيرة سـلام وسكون.

كـان يسكن هذه الجـزيرة، منذ نحـو ألفي عـام، إنسـان مـبـالغ في قسـوته، متـعسف، منغمس في إرضـاء شهواته، سيطر على مـلايين الناس وتحكم بمصائرهم، وكان قد استولى عليه رعب شديد من أن يكمن له أحد ما خلف زاوية ويقتله، فمارس قسوة لا حد لها، حتى اندمغ في ذاكـرة البـشـرية كـرمـز للبطش وإلى الأبد، إلى أن صـار الناس يفدون إلـى هنا، إلى هذه الجزيرة لمشاهدة أطـلال ذلك البيت الحـجـري الذي عـاش فـيـه. في ذلك الصـبـاح الرائع كـان كل الزوار القـادمين إلى كـابري، لهـذا الـغـرض تحـديدا، مـا زالوا نيـامـا في فنادقهم على رغم أن مداخل المدينـة قد ازدحمت بالحـمـيـر القـوية ذات السروج الحمراء، التي كـانت ستحمل الأمريكيين والألمان رجالا ونسـاء، كبـارا وصـغـارا، بعـد تناول الفطور تتبـعـهم، عبـر المنعـرجـات الجبلية الصـخرية حتى قمـة مونت تبيرو، شـحـاذات كـابري العـجـائز لاكزات الحمير بعصي قبضن عليها بأيديهن الهزيلة المعروقة.

في تلك الليلة نام السـيـاح بعمق، كـان السـيد من سـان فـرانسـيسكو ينوي الـذهـاب مـعـهم، لكن هـا هو يـعـود مـيـتـا إلى نـابولـي بعـد أن أرعبهم بذكرى الموت.

كـانت الجـزيرة هـادئة، ولـم تفتح المحـلات بعد أبوابها. لكن كـان في السـوق القـائمـة على سـاحـة صـغيرة يبـاع فـيـهـا السـمك والخـضـار،

بعض الناس البسطاء. وقف بينهم بلا عمل، كعادته دائما، لورينتو البحار العجوز طويل القامة الوسيم، والعاطل عن العمل، الذي تعرفه إيطاليا كلها، إذ عمل غير مرة موديلا لعديد من الرسامين. لقد أحضر هذا الصباح إلى السوق سرطانين اصطادهما في الليلة الماضية وباعهما بسعر زهيد لطباخ ذلك الفندق الذي نزلت فيه الأسرة القادمة من سان فرانسيسكو. وهكذا يشعر لورينتو الآن أن باستطاعته الوقوف هنا وقفته القيصرية المعهودة، والتسكع في هذه السوق متبخترا بأسماله وغليونه الفخاري وطاقيته الصوفية الحمراء المائلة قليلا على أذنه. وكان ثمة رجلان من سكان الجبال يهبطان من أعالي كابري عبر منحدرات مونت سوليارو على الطريق الفينيقية المحفورة في الصخور. حمل أحدهما، تحت سترة جلدية، مزمارا قربيا هو فروة عنزة كبيرة ذات زمارتين، أما الآخر فكان يحمل نايا خشبيا. كانا يهبطان هذه المنعرجات الجبلية الصخرية وقد بدت أمامهما الجزيرة كلها تقريبا راقدة غارقة في زرقة أسطورية، ومتلفعة بالأبخرة الصباحية المتلألئة تحت أشعة الشمس، التي تشع متوهجة وهي تصعد قبة السماء، منيرة بقاع إيطاليا الضبابية اللازوردية، التي قلقلها طلوع الصباح، وجبالها القريبة والبعيدة التي تعجز الكلمات البشرية عن تصوير جمالها... في منتصف الطريق خففا خطوهما: ففوق الطريق في مغارة مونت ساليارو الصخرية، انتصب تمثال أبيض كالثلج مصنوع من الجص للسيدة العذراء تضيئه الشمس مسربلا بالبريق والدفء... وقفت وادعة وعلى رأسها إكليل ملكي مذهب صدئ بفعل الطقس، رافعة عينيها إلى

السماء، إلى المستقر الأبدي الخالد لابنها المجد ثلاثا. هنا كشف الرجلان عن رأسيهما وتمتما بأدعية ومدائح رضية ساذجة للشمس والصباح للسيدة العذراء الطاهرة نصيرة الصابرين في هذا العالم الشرير والرائع، ولذلك المولود من رحمها في مغارة في مأوى رعوي فقير، في بيت لحم من أرض فلسطين البعيدة.

عاد العجوز من سان فرانسيسكو جسدا ميتا إلى موطنه ليدفن هناك في قبر على شواطئ العالم الجديد، بعد أن لقي الكثير من الإذلال ومن لا مبالاة الناس به، وبعد أسبوع من التنقل بين مرفأ وآخر إلى أن انتهى أخيرا إلى متن السفينة الشهيرة ذاتها التي أقلته قبل فترة وجيزة باحترام إلى العالم القديم. لكنه أخفي هذه المرة عن أعين الأحياء في تابوت مطلي بالقطران مركون في العنبر المظلم... وانطلقت السفينة من جديد في طريقها البحرية الطويلة. أبحرت ليلا قرب وبمحاذاة كابري، وكانت أضواؤها حزينة تختفي ببطء في ظلام البحر لمن يرقبها من الجزيرة، لكن هناك في السفينة، في صالاتها المرمرية المتألقة بالضياء، فكانت ثمة حفلة ليلية صاخبة كالعادة.

استمرت الحفلة الساهرة في الليلة التالية والثالثة وسط عاصفة شديدة مندفعة فوق جبال المحيط، وكانت تدوي مذكرة بقداس حزين، متهادية بخطى جنائزية يجللها زبد فضي. كادت العاصفة الثلجية تحجب الوصاوص النارية للسفينة عن الشيطان الذي كان يرقبها من فوق صخور جبل طارق، من المضيق الحجري الفاصل بين عالمين، متابعا المركب المبحر وسط الظلام والعاصفة. كان الشيطان ضخما كصخرة هائلة، لكن كانت السفينة ضخمة كذلك

متعددة الأشرعة والمداخن، ومصنوعة بما يرضي صلف وكبرياء الإنسان الجديد ذي القلب القديم. كانت العاصفة تضرب أشرعة السفينة ومداخنها ذات الحناجر الواسعة المجللة ببياض الثلج، لكنها لبثت صامدة مهيبة ومرعبة، كما كانت حجرة القبطان الرهيب الشبيه بإله وثني قابعة في الطابق العلوي منها وسط الزوابع الثلجية، مضاءة بقنديل خافت الضوء، بينما القبطان يرقد ممتطيا السفينة بكاملها، مستغرقا في نوم حذر قلق. كان يسمع عويل الريح الثقيلة وزعيق الصافرة الغاضب المخنوق بالعاصفة، لكنه كان يحس بالاطمئنان بسبب مجاورته لتلك القوة الجبارة - وإن تكن غير مفهومة من قبله - الرابضة خلف الجدران في تلك الحجرة المصفحة المتواصلة الهدير والصرير مع طقطقة أزرار زرقاء جافة تومض وتتقطع، يديرها عامل برق ذو وجه شاحب وطوق معدني على رأسه، وتؤمن له التواصل مع العالم الخارجي. وفي الأسفل، في الجزء العائم من «أتلانتيدا» غلت مراجل ضخمة وآلات عديدة أخرى بالزيت والماء، في مطبخ ملتهب بالجحيم، تكفل حركة السفينة وتوزع الطاقة الضرورية إلى شتى أقسامها وأعضائها، لا سيما إلى نفق مضاء بكهرباء شحيحة النور، تدور فيه - ببطء يسحق الروح البشرية - مسننات عملاقة أشبه بغيلان حية ممتدة في هذا النفق الشبيه بفوهة بركان.

أما صدر «أتلانتيدا» الحافل بالمطاعم والصالات المخصصة للحفلات الترفيهية الساهرة فكان يتلألأ بالضوء والفرح، وضجيج الحشد المتأنق اللاهي، ويتضوع شذا الأزهار وتصدح الأوركسترا. وهنا، مرة أخرى، انساب وتلوى العاشقان المأجوران الرهيفان

وسط بريق الأضواء والحرير والماس وصدور النساء العارية في حركات أنيقة مدروسة. كانت الفتاة متواضعة إلى درجة الخطيئة، مليحة ذات رموش مسبلة وتسريحة بريئة.

أما الشاب فكان وسيما طويل القامة، ذا شعر أسود لماع، بدا كالملصق على رأسه، علت وجهه المساحيق، ينتعل حذاء ملمعا ويرتدي فراكا ضيقا ذا شقين طويلين، وبدا أشبه ما يكون بالعلقة الكبيرة. لم يكن أحد يدري مدى ما يكابد هذان العاشقان من سأم من الدور الذي يمثلانه، من ذلك الألم المصطنع، الألم العذب على إيقاع موسيقى حزينة وقحة؛ كما لم يكن أحد يدري، أو يعبأ، بالتابوت القابع في قاع العنبر المعتم قرب الجوف القائظ المظلم للسفينة التي تعبر الظلمة والمحيط والعاصفة.

المؤلف في سطور

إيفان بونين

- ولد عام ١٨٧٠ من أسرة أرستقراطية ونشأ في إحدى القرى الروسية.
- بدأ الكتابة والنشر وهو في السادسة عشرة من عمره ومنح لقب أكاديمي شرف على إبداعه الأدبي من أكاديمية العلوم الإمبراطورية عام ١٩٠٩.
- في ١٩١٩ ترك موطنه روسيا ورحل إلى فرنسا.
- حصل على جائزة نوبل عام ١٩٣٣، ومن أعماله: «موسم الخريف»، «إلى آخر العالم»، «قواعد الحب»، «حياة أرسينيف».
- توفي في منفاه الاختياري بفرنسا عام ١٩٥٣.

المترجم في سطور

شوكت يوسف

- حاصل على ماجستير في علم اللغة الروسية وآدابها من الاتحاد السوفييتي السابق عام ١٩٧١.
- درّس اللغة الروسية في حلب ودمشق، ثم كلية اللغات والترجمة بجامعة الملك سعود في الرياض.
- عضو في لجنة التأليف والترجمة في وزارة الثقافة بدمشق، وعضو في اتحاد الكتاب العرب في سوريا.
- له عدة ترجمات عن اللغة الروسية في مجال الأدب والعلوم الإنسانية منها: «الواقعية النقدي»، «الإبداع الفني والواقع الإنساني»، «المثقفون والتقدم الاجتماعي» و«الأدب الإفريقي» (مختارات).

المراجع في سطور

د. نديم معلا

- كاتب وناقد سوري.
- أستاذ النقد والدراما في المعهد العالي للفنون المسرحية في الكويت.
- له عدة دراسات في الأدب والمسرح الروسيين، كما ترجم عن الروسية عدة كتب. وراجع لسلسلة «من المسرح العالمي»: «الجزيرة القرمزية» و «بوريس جودونوف».

إبداعات عالمية
341

غرام ميتيا

يعتبر الأديب إيفان ألكسيفيتش بونين اسما خالدا في تاريخ الأدب الروسي الكلاسيكي، فهو أول كاتب روسي يمنح جائزة نوبل عن روايته «حياة أرسينيف».

ولد عام ١٨٧٠ وترعرع في قرية صغيرة وسط روسيا، وهو سليل أسرة نبيلة أصابها العوز مع نمو العلاقات الرأسمالية على حساب النظام الإقطاعي، الذي كان سائدا في المناطق الريفية من الإمبراطورية الروسية. وبعد الثورة البلشفية، هاجر إلى فرنسا بسبب مواقفه المعادية للشيوعيين، إلا أنه رغم كل شيء آثر أن يكون شريفا في آرائه ورفض المتاجرة بمواقفه تجاه النظام الجديد الحاكم في بلده.

أدبيا اتسمت كتابات بونين بالرومانسية والصبابة وحب الطبيعة الروسية الأصيلة، ويمكن تلمس ذلك من خلال هذا العدد، الذي يعرض لبعض أعمال الكاتب: «غرام ميتيا» وهي رواية قصيرة تتحدث عن شاب يبادل الحب فتاة تدعى «كاتيا»، تترك هذه الفتاة معشوقها ميتيا لغيرته الشديدة عليها ولولعها المفرط بالفن، بالتالي يصاب ميتيا باليأس وينتحر. أما العمل الثاني في هذا العدد (ناتالي) فهو حكاية باسم بطلتها التي تتعرف إلى «فيتالي»، الفتى المتحدر من أسرة نبيلة، عن طريق سونيا ابنة خاله؛ شغف بها الفتى لمجرد أن وصفتها له سونيا، ومن ثم التقيا، ولكن ناتالي تخلت عنه عندما اكتشفت أنه على علاقة غرامية بابنة خاله، وبعد مرور وقت طويل - تزوجت خلاله بآخر وتوفي هذا الآخر - التقى بها مجددا، إلا أنها فارقت الحياة أثناء الوضع. «ضربة شمس» وهي قصة قصيرة تصف بأسلوب فني رائع تأثير لحظة غرام بين امرأة فاتنة مجهولة الاسم وملازم يمر بإحدى المدن، إلا أن لحظة الغرام هذه تركت فيه جرحا لا يندمل رغم تقدمه في العمر. ثم يأتي العمل الأخير (سيد من سان فرانسيسكو)، وهو يسرد رحلة رجل ثري، عمل بكد طوال حياته كي يجمع ثروته، بعدها يستريح ليقوم بجولة حول العالم، إلا أنه لفظ آخر أنفاسه قبل أن يكمل هذه الرحلة.

وعلى رغم معاداة إيفان بونين معاداة للشيوعية، لكن السلطة السوفييتية لم تستطع إلا أن تقر بموهبته الخلاقة وتقدر حبه العارم لروسيا. ويعد بونين أحد أكثر الكتاب الروس المحبوبين جماهيريا.

ردمك ٣ - ١٠٠ - ٠ - ٩٩٩٠٦

ISBN 99906- 0 - 100 - 3